

امرأة أرسين

مكتبة معروف

امرأة أرسين لوبين

محمد عبد المنعم جلال



الإسكندرية ٤٨١٠٨٢٨، ٤٨٤٦١٢٥ / فاكس ٤٨٦٠٠٨٩
القاهرة ٢٦١١٢٢٩، ص.ب ١٢٢٠ الإسكندرية

١ أرسين لوبين فى العشرين من عمره

ترك راوول داندريزى دراجته وراء منحدر تغطيه الأعشاب ، ودقت ساعة الابراشية حينئذ ثلاث دقات ، فسار على قدميه فى الطريق الموصل الى قصر البارون ديتج . ولما بلغ القصر وقف ينصت هنيهة فطرق سمعه صهيل جواد أعقبه صوت عربة تتقدم وأجراس تدق . وفتح مصراعا الباب فجأة ومرقت منه عربة سمع راوول فيها صوت رجال يتحدثون . ولمح فوهة بندقية، وسرعان ما اختفت العربة فى طريق إتريتا .

وتمتم راوول يحدث نفسه :

– لم أكن اعرف أن صيد الطيور يحلو فى الليل . ان مكان الصيد بعيد ، فلأنتهز هذه الفرصة لأعرف سبب خروج البارون فى هذه الساعة المتأخرة .

ودار حول القصر . ولما بلغ الحائط الخلفى تقدم أربع خطوات ثم توقف . وكان فى يده مفتاحان ففتح بأحدهما باباً منخفضاً ، وصعد درجاً منحوتاً فى الجدار . أما المفتاح الثانى فقد فتح به بابا سرياً أفضى الى الطابق الأول .

أخرج مصباحه الكهربائى ، وسلط نوره حوله بدون حذر ، لأنه كان يعلم

أن الخدم يقيمون فى الجناح الآخر من القصر ، وان كلاريس ديتيج ، الابنه الوحيدة للبارون تقيم فى الطابق الثاني . واجتاز رواقاً فى آخرغرفة مكتب البارون . وكان قد دخلها مرة قبل هذه منذ أسابيع قلائل ، وطلب من البارون يد ابنته فقوبل أسوأ مقابلة وطرد شر طردة و خيل إليه ان ذكراها لن تبرح مخيلته طالما بقى على قيد الحياة .

ورأى وجهه فى المرآة . كان وجه شاب فى مقتبل العمر ، شاحب اللون ، ولكنه مع ذلك ، ورغم ما كان يشعر به من انفعال واضطراب فقد استطاع أن يكبح جماع نفسه وأن يقوم بالمهمة التى جاء من أجلها ببرود ورباطة جأش .

لم تأخذ منه هذه المهمة وقتاً طويلاً ، فانه أثناء زيارته الأولى للبارون ، أولى المكتب كل اهتمامه ، وعرف المخابىء التى يمكن أخفاء الأشياء فيها ، فما هى إلا لحظات حتى عثر فى شق على رسالة مكتوبة على ورق رقيق جيد، ملفوفة كالسيجارة ، وكانت من غير توقيع ، ومن غير عنوان .

فحص راوول الرسالة . ولما قرأها استحمق صاحبها لأنه أخفاها بكل تلك العناية ، ولكنه بعد أن استبعد بضع كلمات وضعت للتضليل قرأ مايلى :

« وقعت على آثار عدوتنا فى روان ، فنشرت فى الجرائد المحلية خبراً مؤداه أن فلاحاً بقرية اترتيا عثر فى أراضيه على شمعدان نحاس بسبعة فروع ، فأبرقت صاحبتنا على الفور الى حوزى اترتيا وطلبت منه أن يرسل إليها عربة فى محطة فيكامب فى الساعة الثالثة من اليوم الثانى عشر . ولكنى سأبرق الى الحوزى فى صباح ذلك اليوم وأقول له عن لسانها « اننى عدلت عن المجيىء الى القرية » وعليه فان عربتك هى التى ستنتظرها فى محطة فيكامب ، فاعمل على أن تقودها إلى قصرك تحت حراسة جيدة فى

الوقت الذى سنعقد فيه اجتماعنا .

« سوف نقوم بمحاكمتها عندئذ وننطق بالحكم ضدها . وسيكون حكماً قاسياً صادقاً وعادلا فى نفس الوقت . وسننفذ الحكم فى التو ، ففى العصر الذى كانت فيه الغاية تبرر الوسيلة كان العقاب ينفذ بسرعة . تذكر اتفاقنا الأخير ، وتذكر ان نجاح مشروعنا ونجاة أرواحنا متعلقان بهذه « السفاكة الجهنمية » فتوخ الحذر ، وتظاهر بأنك خارج للصيد حتى نكون بعيدين عن كل ريب وفطنه . سأحضر أنا واثنان من أصدقائنا بطريق الهافر فى تمام الساعة الرابعة . لا تتلف هذه الرسالة فسأستردها منك عند قدومى . »

* * *

قال راوول محدثاً نفسه بعد أن فرغ من قراءة الرسالة :

« الافراط فى الحذر يعرض صاحبه للهلاك ، فلو ان كاتب هذه الرسالة اطمأن ولم يتحرز لحرقها البارون ولما عرفت بمحاولة الاختطاف التى سيقومون بها ومحاكمتهم غير القانونية ، ولما علمت شيئاً عن الجريمة التى يدبرونها فى الخفاء .. يا إلهى ! ما كنت أظن أن صهرى المقبل ضليع فى عالم الاجرام .

وفرك يديه وشعر بسرور كبير يغمر قلبه ، فقد راقت له هذه المسألة ، واسترعت اهتمامه بضع نقاط لاحظها منذ أيام ، وعقد العزم على أن يعود الى الحانة التى يقيم فيها لينام ، ثم يعود فى اليوم الثانى فى الميعاد المذكور فى الرسالة لكى يقف على حقيقة مؤامرة البارون ومدعويه ، ولكى يعرف من هى هذه السفاكة الجهنمية التى حكموا عليها بالموت .

أعاد راوول الرسالة مكانها ، ولكنه بدلاً من أن يغادر القصر جلس أمام طاولة عليها صورة كلاريس ، وأخذ يتأمل الصورة بعينان يفيضان بحب

دفين .. كانت لفتاه فى الثامنة عشرة من عمرها ، جذابة الملامح ذات شفتين رقيقتين ساحرتين وعينين حالمتين ، وشعر أشقر جميل ووجه شاحب كان يزيدها جمالاً وفتنة .

قست نظرته وغمرته فكرة شيطانية لم يستطع أن يتغلب عليها كانت كلاريس بمفردها فوق ، فى مسكنها المنعزل ، وقد سبق واستخدم المفتاحين اللذين أعطتهما له وانضم إليها وقت تناول الشاى ، فما الذى يمنعه اليوم . لم يكن فى الامكان وصول أى صوت إلى الخدم ولن يعود البارون إلا آخر النهار دون شك ، فلماذا ينصرف ؟

ومع ذلك فقد وقف متردداً أمام الباب . فهو إذا كان قد سبق واجتازه فقد كان ذلك فى عز النهار ، كصديق محترم رزين . فما المعنى من دخوله الآن فى هذه الساعة من الليل ؟

معركة ضمير لم تطل ، فلم يلبث أن طرق الباب ثلاث مرات ، وهمس يقول :

- كلاريس .. كلاريس .. أنا راوول .

ومرت دقيقة ، ثم فتح باب المخدع ، وظهرت الفتاه وفى يدها مصباح ، ولاحظ شحوب وجهها ، وما ارتسم عليه من امارات الفزع والهلع حين رأته ، فارتبك وارتد الى الوراء قائلاً :

- لا تؤاخذينى يا كلاريس .. اننى أتيت رغماً عنى .. ما عليك إلا أن تنطقى بكلمة واحدة فأذهب .

لو أنها سمعت هذه الكلمات ووعتها لنجت ولا نتصرف على خصم رضى بالفشل مقدماً ، ولكنها لم تعها، وامتدت أمام بصرها غشاوة فلم تر شيئاً. وأرادت ألا تظهر سخطها فتمتمت ببضع كلمات غير مفهومة . وأرادت أن

تطرده فلم تجد القوة لكى تحرك ذراعها وترفعها . وسرت فى بدنها رعشة فألقت بالمصباح فوق طاولة بجوار الباب ، وما كادت تفعل حتى دارت حول نفسها ووقعت على الأرض مغمى عليها .

تحابا منذ ثلاثة شهور ، فقد التقى بها أثناء إقامتها فى باريس مع صديقة لها ، وشعر كلاهما بالميل نحو الآخر فى الحال . وأحبته الفتاة حباً ملك عليها مشاعرها وحواسها ، فما رأته حتى خيل إليها أنه شاب غامض ، مبهم ، وأنها لن تفهمه مهما حاولت . اساءها استخفافه ومرحه وسخريته الشديدة ودعاباته اللاذعة ، ولكن أعجبها منه جاذبيته ومرحه وخفة روحه .

ولما عادت الى نورماندیا دهشت حين رأته ذات صباح منحنياً فوق الجدار أمام نوافذ مخدعها . وأقام الشاب فى حانة قريبة تبعد عن القصر ببضعة كيلو مترات ، وجعل يأتى كل يوم على دراجته ، ويلتقى بكلاريس على مقربة من قصر ديتيج .

كانت كلاريس يتيمة الأم ، ولم تكن تشعر بأية سعادة مع أبيها ، فقد كان البارون قاسى القلب جاف العاطفة فخوراً بلقبه كما كان شجاعاً . وكان عماله الذين يشتغلون فى مزرعته يخافونه ويرهبونه كما يرهب الانسان شر عدو له . فلما جرؤ راوول وطلب منه يد ابنته ثارت ثائرته ، وغلت مراجل غضبه على الشاب الصعلوك الأجرد الذى لا عمل له ولا لقب . ولولا أن راوول رماه بنظرة باردة تقطر سخطاً لصفعه البارون ولشنع به أسوأ تشنيع .

حزنت كلاريس عندما علمت ان أباها طرد الشاب من مكتبه . وأرادت أن تصالحه وترضيه فأتت باكبر هفوة فى حياتها ، وفتحت له باب مخدعها مرتين ، فاستغل راوول هذا العمل البرىء الطاهر لتقوية حبه وتثبيت دعائمه.

فى ذلك الصباح ادعت أنها تشكو من صداع ولزمت غرفتها . وأمرت بإحضار طعام الغذاء إلى مخدعها بينما اختفى راوول فى غرفة مجاورة ، وبعد أن تناولا طعامهما احتواها بين ذراعيه وجلسا أمام النافذة المفتوحة يوحدهما غرامها وذكرى قبلاتهما على الرغم من الخطيئة التى ارتكباها .

ومع ذلك فقد أخذت كلاريس تبكى .

وقال راوول فى رفق :

– افرحى أيتها الحبيبة . ان الحياة جميلة لمن هم فى سننا . وستكون أجمل حين نتغلب على الطرقين التى أمامنا ، فلاتبكى .

مسحت دموعها وحاولت أن تبتسم وهى ناظرة إليه . كان نحيف الجسم مثلها ولكنه كان عريض المنكبين ، تبدو فى ملامحه أمارات النبل وسمات المهابة . يدل فمه على ذكاء متوقد فى حين كانت عيناه تشعان ببريق السخرية والاستخفاف . وقالت جازعة .

– راوول .. راوول . انك حتى فى هذه اللحظة وأنت ناظر الى لا تفكر فى.. هل يمكن هذا ؟ انك لا تفكر فى بعد ما حدث بيننا، فيم تفكر أيها الحبيب راوول ؟

فقال ضاحكاً : اننى أفكر فى أبيك .

– تفكر فى أبى ؟

– نعم . أفكر فى البارون ديتيج وفى مدعويه . كيف يضيعون أوقاتهم فى قتل طيور لا حول لها ولا قوة

– انها هواية عندهم .

– هل انت واثقة مما تقولين ؟ .. أما أنا فلابد أعتقد ذلك .. لو اننا فى

سنة ١٨٩٤ لظننت أنهم ..

– امض فى حديثك أيها الحبيب .

– حسناً .. يخيل الى أنهم يتآمرون .. أجل يا كلاريس .. ان المركيز دى رولفيل ، وماتيو دى لافوبالين والكونت أوسكار دى بنيتو ووركس دشييه وغيرهم .. كل هؤلاء النبلاء ، سادة بلدة كو مشتركون فى مؤامرة ما ..

عبست كلاريس وقالت : هذا سخف يا عزيزتى .. دعنا من ذكر أبى ومدعويه وحدثنى عن حبك لى .

– ان حياتى مكرسة لك ولحبك أيتها الحبيبة .. لا شاغل لى ولا مطمع إلا نوالك يا كلاريس .. هبى أن أباك يتآمر، وانه اعتقل وحكم عليه بالاعدام، فخلصته أنا من الموت وأنقذته من السجن ، أفلا يرضى عندئذ أن يعطينى يدك .

– سوف يرضى فى يوم قريب ايها الحبيب .

– اوه ... أ بداً ... اننى فقير ، ولا أمارس أى عمل .

– ولكن عندك اسمك ... راوول داندريزى .

– حتى هذا الاسم لا أملكه .

– وكيف هذا ؟

– داندريزى اسم أمى ، استعادته بعد أن أصبحت أرملة . وقد استعادته نزولاً على رغبة أهلها الذين اسخطهم زواجها وأساءهم .

فسألته كلاريس قائلة : ولماذا ؟

– لماذا ؟ .. لأنها تزوجت رجلاً فقيراً من عامة الشعب ... يشتغل بتدريس الجمباز وألعاب السيف والملاكمة .

– وما اسمك اذن ؟

– أرسين لوبين .

– أرسين لوبين ؟

– نعم ، وهو كما ترين اسم عادى .

ذهلت كلاريس . ماذا يهمها أن يكون اسم زوجها أرسين لوبين أو راوول داندريزى ؟ ان شخصه هو الذى يهمها . ولكن البارون ...

وتمتمت تقول :

– ما كان يجب أن تتبرأ من أبيك . أتخجل من أنه كان مدرساً ؟

ضحك ضحكة ألمتها وقال :

– كلا . و أقسم اننى استفدت من دروسه التى لقنها لى فى الجمباز والملاكمة وأنا لا أزال طفلاً . ولكن قد تكون هناك أسباب حملت أمى على الانفصال عنه . وهذه الاسباب لا تعنينى .

وقبلها فجأة ثم أخذ يرقص ويدور حول نفسه ، وعاد إليها أخيراً وقال :

– ولكن ، اضحكى ايتها الحبيبة ... كل هذا غريب ... اضحكى ... ماذا يهمك أن يكون اسمى أرسين لوبين او راوول داندريزى . المهم هو ان أنجح، وسأنجح بإذن الله . ما من عراف او عرافة إلا وقد تنبأ لى بمستقبل باهر وبشهرة عالمية . سيكون راوول داندريزى جنرالاً أو وزيراً أو سفيراً .. ذلك اذا لم يصبح ارسين لوبين . هذه مسألة للقدر وحده أن يفصل فيها . وعلى كل حال فاننى على استعداد لكى اكون هذا أو ذاك ، فلى عضلات من القولاذ وعقلى لا يباريه عقل . أتريدين أن أمشى على يدى ؟ او أن أحملك بين ذراعى ؟ هل تحبين ان أسلبك ساعتك دون أن تشعرى ؟ ... أو أن ألقى

عليك قصائد هومير اليونانية وملتون الانجليزية . أه ! ما أجمل الحياة ! راوول داندريزى ... او ارسين لوبين ؟ أيهما سيكون المجد من نصيبه يا شمس حياتى ؟

أمسك راوول عن الكلام فجأة وقد أثقل عليه استخفافه . ودار ببصره فى الغرفة التى أقلق هدوءها كما أقلق راحة وضمير الفتاه الطاهر ، ثم جثا أمام كلاريس بخفته المعهودة وقال :

– عفوك يا كلاريس . لقد أسأت إليك بحضورى .. ليس الذ نب ذنبى ، نعم يمكننى الاحتفاظ بتوازنى إلا بعد مجهود كبير ... فكل من الخير والشر يجتذبنى ... يجب أن تساعدينى يا كلاريس فى اختيار الطريق الذى ينبغى أن أسلكه . ويجب أن تصفحى عنى إذا أخطأت .

أخذت رأسه بين يديها وقالت :

– ليس هناك ما تؤاخذ عليه يا راوول . اننى سعيدة . سأتألم كثيراً ، وانا موقنة من ذلك ، ولكننى أرضى بالعذاب والآلام ما دامت صادرة منك .. خذ ... إليك صورتى . كن عاقلاً ، ويجب ألا تخجل حين تنظر إليها . أما أنا فسأظل على عهدى لك يا راوول، عشيقتك وزوجتك أمام الله ... أننى أحبك .

وطبعت قبلة على جبينه ، فابتسم وضعها إلى صدره فى شغف وجنون .

* * *

كانت خطة راوول ، ولنترك اسم أرسين لوبين جانباً الآن ، فهو نفسه لم يكن يعرف مصيره حينذاك ، وكان ينظر إلى هذا الاسم نظره الى شيء محتقر – كانت خطة راوول بسيطة ، فقد كان يوجد فى الحديقة برج مقام بجانب سور القصر ، وكانت الأعشاب تغطى جدرانه ، فلم يشك فى أن

اجتماع الساعة الرابعة سيكون فى القاعة الكبرى التى يستقبل فيها البارون عماله . وقد لاحظ راوول أن إحدى نوافذ البرج الخارجية تقع أمام نافذة هذه القاعة مباشرة .

تسلق راوول الأغصان بسهولة ، ودخل البرج من النافذة ، واختفى وراء الأعشاب والأغصان بطريقة تمكنه من رؤية كل ما يحدث فى القاعة من غير أن يراه أحد .

وبعد أربعين دقيقة جاء البارون ومعه ابن عمه أوسكار دى بنيتو . وكان للبارون جود فرى ديتيج عضلات مصارع من مصارعى السيرك ووجه بلون القرميد ، وله لحية شقراء قصيرة وعينان حادتان ثاقبتان كعيني الصقر . أما زميله ، وهو ابن عم له فكان له منظر نبيل ريفى خشن المظهر بطيء الحركات ، وكان كل منهما شديد الانفعال فى تلك اللحظة . وقال البارون :

– أسرع . سينضم إلينا لافوباليير ورولفيل دوبيجار ، وسيأتى بومنيان فى الساعة الرابعة ، ويرفقته البرنس داركولا والكونت دى برى ، ثم تأتى هى .. ذلك إذا وقعت فى الفخ .

قال أوسكار دى بنيتو :

– هذا أمر مشكوك فيه .

– ولماذا ؟ انها طلبت عربة وستجدها فى انتظارك فى المحطة ، فتركبها . وسيقود دورمون العربة . و يأتى بها إلينا . وفى منتصف الطريق سيقفز روكس دشييه على سلم العربة و يفتحها ويخضع السيدة ويقيدها هو ورورمون ، وهذا أمر محتوم .

فونا بنيتون من جودفرى ديتيج وهمس يقول :

– وبعد ذلك ؟

- سأطلع الأصدقاء على أمرها .

- وهل تظن أنك ستتسخلص منهم أمر بإعدامها ؟

- سواء تم هذا أم لا فسوف تكون النتيجة واحدة .. فان بومنيان يريد ذلك ولن يسعنا أن نرفض .

- آه ... ان هذا الرجل سيوردنا موارد الهلاك معه .

هز البارون كتفيه وقال :

- يلزمنا رجل مثله لكى يتغلب على هذه المرأة . هل أعددت كل شىء ؟

- نعم . الزورقان موجودان تحت سلم الابراشية ... والزورق الصغير مثقوب ، وسيغوص فى البحر بعد عشر دقائق من وضعه فوق سطح الماء .

- وهل وضعت فيه حجرا؟

- نعم . حجراً ثقيلاً .

ولزما الصمت . وكان راوول قد سمع كل كلمة من حديثهما فقال يحدث نفسه :

- ويلكما ! اننى لا أتنازل عن مكانى هذا حتى ولا مقابل امبراطورية يالهما من شجاعين .. انهما يتحدثان عن القتل كما لو انهما يستعدان لقتل عصفور .

ووصل المدعون الثلاثة معا ، وجلسوا فى ركن مظلم بحيث لم يستطع أن يتبين ملامحهم .

وعند تمام الساعة الرابعة جاء رجلان أحدهما متقدم فى السن ، تدل هيئته على أنه من رجال الجيش ، أما الآخر فقد نهض الموجودون عندما رأوه وسارعوا الى استقباله ، فأدرك راوول على الفور انه كاتب الرسالة

التى قرأها وانه هو المدعو بومنيان

أشار بومنيان إليهم أن يجلسوا ، ثم قدم إليهم زميله قائلاً :

– البرنس داركولا ... وهو من أتباعنا كما تعرفون ، وان كان لم يحضر اجتماعاتنا الأولى . ان شهادته اليوم ضرورية ، لأنه التقى مرتين فى سنة ١٨٧٠ بتلك « السفاكة الجهنمية » التى تهدد مصيرنا .

قام راوول بعملية حسابية فشعر بشىء من الخيبة ، لأن « السفاكة الجهنمية » لم يكن عمرها يقل عن الخمسين سنة ، إذا كان بومنيان قد قال حقاً .

جلس البرنس داركولا بينما انفرد بومنيان بالبارون جود فرى وأخذ منه لفافة صغيرة ولم يشك راوول فى انها الرسالة المذكورة .

ثم تبادلا حديثاً بصوت خافت ، قطعه بومنيان بصوت لم يسمعه الآخرون:

– كفى مجادلة يا سيدى . ان الحكم صارم . ستموت السفاكة غرقاً ، فهذه أضمن وسيلة .

ثم سار إلى مقعد خلفى ، وقال قبل أن يجلس :

– انكم تعرفون مدى أهمية هذه الساعة بالنسبة لنا أيها الاصدقاء .

لقد تم بيننا الاتفاق على القيام بمهمة لابد لنا من القيام بها فعليها وحدها يتوقف نجاح مشروعنا ، وبها تتعلق أرواحنا . لقد عرفت امرأة ذلك المشروع الذى نسعى وراءه ، وهى الأخرى تبحث عما نبحث عنه ، فهى إذا نجحت قبلنا ففى ذلك ضياع مجهوداتنا ... هى أو نحن ... ليس فى هذه الدنيا مكان لاثنين . وتمنوا معى بكل حرارة أن تنتهى هذه المعركة فى

صالحنا .

وجلس وانقضت الدقائق ببطء . وساد صمت عميق ، لم يحاول أحد أن يقطعه . وسمعوا أخيراً صوت عربة آتية فصاح البارون قائلاً :

– مرحى ! لقد جاءوا بها .

ووقفت العربة . وهبط نورمون من مكان القيادة ووثب روكس دشيية منها إلى الخارج ، وأخرج الاثنان بمساعدة البارون امرأة مشدودة الوثاق ، يغطي رأسها غطاء رقيق وحملوها إلى القاعة . وقال البارون مخاطباً نورمون :

– ارفع الغطاء .

وفك قيودها هو نفسه . ورفع نورمون الغطاء فتمتم المدعوون وتهامسوا همسات تنم على الدهشة ، واستولت الدهشة على راوول هو الآخر ، فقد رأى امامه إمرأة فى شرخ الشباب وروعة الجمال .

وصاح البرنس داركولا صيحة اسكتت الآخرين . وتقدم نحو المرأة عابس الوجه وعيناه تقدحان شرراً وقال :

– إنها هى .. اننى أعرفها .. رحماك يا الله !

فسأله البارون قائلاً :

– ما الخبر ؟

نطق داركولا عندئذ بهذه الكلمات التى استدعت دهشة الآخرين :

– انها لا تزال فى شرخ الشباب ، كما كانت منذ أربع وعشرين سنة .
وكانت المرأة قد جلست شامخة الرأس . وقد شبكت يديها فوق ركبتها .
وكانت قبعتها قد وقعت أثناء النزاع الذى وقع بينها وبين نورمون فى العربة.

وكان شعرها مرسلاً الى الوراء بشكل مغر .. جذاب . وتمتم راوول وهو ينعم النظر إليها :

– يبدو لى أن هذه السفاكة الجهنمية من أروع مخلوقات الله ! ... أيتواطأ عشرة رجال ضدها!

نظرت المرأة الى المدعوين ملياً ، وحاولت أن تميز ملامح الجالسين فى الركن ، وأخيراً قالت :

– ماذا تريدون منى ؟ اننى لا أعرف أحداً منكم ، فلماذا جئتم بى إلى هنا ؟

قال جودفرى ديتيج :

– لأنك عدوتنا .

عدوتكم ؟ ... لا ريب ان هناك خطأ ... اننى مدام بللجسرينى مدام بللجرينى .

– أؤكد لكم ...

قال جود فرى قائلاً بصوت حاسم :

– كلا .

ثم أردف ، ونطق بهذه الكلمات الغريبة :

– بللجرينى اسم كان ينتحله الرجل الذى تدعينى بنوته فى القرن الثامن عشر .

لم تنطق المرأة . ولزمت الصمت هنيهة ، كأنها تستخف كلماته ،

ثم سألته :

– فما إسمى اذن ؟

– اسمك جوزفين بلسامو ، كونتس دى كاليو سترو .

* * *

٢ جوزفين بلسامو

كاليو سترو .. الساحر العظيم الذى حير أوروبا وأدهش البلاط الفرنسى فى عهد لويس السادس عشر .. عهد الدسائس والقلاقل ... عهد عقد الملكة المشهور ... وعهد مارى انطوانيت والكردينال دى روهان .

لئن كان راوول لم يصدق شيئاً مما سمع ، ولئن كان قد ضحك للتطور الغريب الذى اتخذته المسألة ، فقد خيل إليه أن الموجودين قد أخذوا قول البارون على أنه حقيقة لا تقبل الجدل . وقد دهش لذلك وأخذ يسائل نفسه هل لديهم من البراهين والأدلة ما يجعلهم يعتقدون فى صحة ما أخبرهم به البارون ، وهل وجدوا فى تلك التى تدعى أنها ابنه كاليو سترو المواهب التى عزاها أهل الجيل السالف الى الساحر العظيم ؟!

وانثنى جود فرى ديتيج الى المرأة وقال لها :

– اسمك كاليوسترو ، أليس كذلك ؟

– لا شيء يرغمنى على إجابتك ، كما انه ليس لك أى حق فى أن تسألنى، ولكننى لا أخفى عليك أن شهادة ميلادى تحمل اسم جوزفين بللجرينى ، وأننى لغرض فى نفسى أطلق على نفسى اسم جوزفين بلسامو ، كونتس دى كاليوسترو .

– أنت إذن لست ابنه كاليو سترو ، على الرغم من بعض اعترافاتك .

هزت كتفيها ولزمت الصمت ، فتحول البارون ديتيج الى أصدقائه وقال :

– لا أريد أن أحمل صمتها هذا على أنه اعتراف أو نفى ، فليست لكلمات هذه المرأة أية أهمية ، واذا دحضناها ففي ذلك مضيعة للوقت . اننا اجتمعنا هنا لننتهى من عملا يجهله معظمنا ، ولذلك ، فمن الضرورى أن اذكر لكم الحقائق بحسب ترتيبها ، وهى حقائق وجيزة سأطلعكم عليها فأرجو ان تعيرونى آذانا صاغية .

وأخرج من جيبه ورقة وراح يقرأ :

« فى أوائل مارس من سنة ١٨٧٠ أى قبل نشوب الحرب بين فرنسا بروسيا بأربعة شهور ، كانت الكونتس دى كاليو سيترو فى طليعة الذين لفتوا إليهم الأنظار ، فقد كانت جميلة أنيقة ، وكانت تبعثر المال يمنة ويسرة دون حساب . وكان يرافقها شاب قالت عنه انه أخوها وقد جذبت إليها اهتمام الناس باسمها الغريب ، وبالغموض الذى يحيط بها والمعجزات التى أتت على يدها . وكانت تفخر بأنها ابنه الكونت سترو ، كما أنها راحت تؤكد أنها تعرف سر الشباب الدائم وكانت تبتسم وتسرد على مسامع الناس أشياء غريبة تزعم أنها وقعت لها فى عهد نابليون الأول .

وقد بلغت قوة سحرها وتأثيرها إلى درجة أن أبواب نابليون الثالث فتحت أمامها ، وراحت الامبراطورة أو جينى تستدعيها فى بعض الحفلات الخاصة وتسألها عن كل ما يتعلق بالمستقبل . وقد وصفت جريدة شار يفارى إحدى هذه الحفلات فى عدد من أعدادها صودر فى الحال وهو فى أيدى الباعة ، وسأذكر لكم ملخص ما جاء فيه

« كانت ابتسامتها غامضة لا يستطيع المرء أن يستطلع ما وراءها ...

فيها دلال وسذاجة وقسوة وضلال وتزعم أنها فى الثمانين من عمرهاوفى تلك اللحظات كانت تخرج مرآة صغيرة ذهبية تسكب على سطحها قطرتين من قنينة صغيرة جداً ثم تمسحها وتنظر فيها فإذا بوجهها يعود إلى نضارته وحيويته .

« وعندما سألناها قالت : هذه المرآة كانت ملكاً لكاليوسترو . وان الذين ينظرون فيها بكل ثقة واطمئنان لا يتقدم بهم العجز ولا يشيخون . انظر الى هذا التاريخ المكتوب فى إطارها سنة ١٧٨٢ ، وبجانب التاريخ رباعية مكتوبة وتتضمن لغزاً كبيراً ذكرته الملكة مارى انطوانيت لجوزيف بلسامو . وقد كان فى نية بلسامو أن يحله ، وكان يقول ان الذى يستطيع ذلك يصير ملك الملوك .

فسألها سائل : هل يمكننا أن نعرف هذه الرباعية ؟

– و لم لا ؟ ان معرفتها لا توصلكم إلى حلها . وكاليو سترو نفسه اختطفه الموت قبل أن يسعفه الوقت لذلك . وها هى :

اذا أردت الكنز فهو

مخبؤ تحت بلاطة ملوك بوهيميا

ثروة ملوك فرنسا

الشمعدان ذو السبعة فروع

ولكن كل هذا لا يعد شيئاً إزاء ما حدث فيما بعد ، فقد أرادت الملكة أن تسألها عن المستقبل ، وان كانت قد سألتها من طرف خفى فقالت لها الكونتس دى كاليو سترو :

– لتتكرم جلالة الملكة فتنفخ فى هذه المرآة .

ففعلت الملكة ، وعندئذ نظرت الكونتس الى المرآة وقالت :

– انني أرى أشياء جميلة .. ستقع حرب كبيرة ... وسيكون الفوز حليف فرنسا ... وستعود الجيوش ظافرة ، وسيهللون للامبراطور ولولى العهد الامبراطورى ..

واستطرد البارون ديتيج يقول :

– هذا ملخص ما نشرته جريدة شاريفارى ، وهو أمر يدعو الى الدهشة حقاً، فقد تنبأت الكونتس بوقوع الحرب قبل نشوبها بأسابيع طوال . فمن هى هذه المرأة ؟ .. من هى هذه الأفاقة التى تنبأت وصحت نبؤتها ، والتى طوردت بعد ذلك ؟

لقد أجرت جريدة شاريفارى تحقيقاً سأذكره لكم :

سئلت الكونتس : نحن نسلم بأنك إبنة كاليوسترو .. ولكن من هى أمك ؟

فأجابت قائلة : امى ؟ ابحثوا بين صديقات كاليوسترو ... بين صديقاته ذوات المكانة والشأن ... أجل إنها هى ... جوزفين دى بوهارنيه التى تزوجت نابليون فيما بعد والتى صارت امبراطورة فرنسا .

« دازاء هذا الأمر لم يستطع بوليس نابليون الثالث أن يقف مكتوف الايدى فقام بتحقيق دقيق وفى نهاية يولية قدم أحد مفتش البوليس تقريراً جاء فيه :

« ان شهادة الميلاد تحمل اسم جوزفين بللجرينى بلسامو ، كونتس كاليوسترو ، وهى تثبت انها ولدت فى باليرم فى اليوم التاسع والعشرين من يوليه سنة ١٧٨٨ . وقد ذهبت الى باليرم ، وفحصت سجل المواليد ووجدت فيه بتاريخ ٢٩ يولية سنة ١٧٨٨ اسم جوزفين بلسامو إبنة جوزيف بلسامو وجوزفين دى لاب .

« وقد قمت بتحقيق ثبت لى منه أن جوزفين دى بوهارنية ، بعد طلاقها من زوجها الكونت دى بوهارنية استردت اسم عائلتها جوزفين تاشيم دى لاباجيرى ، وبحثت من هذه الناحية فعلمت ان حكمدارية باريس كانت على وشك اعتقال كاليو سترو ، وكان يقيم فى فندق صغير فى فونتنيبلو على الرغم من انه كان قد نفى من فرنسا بعد سرقة عقد الملكة . وتحريت عن حياة كاليوسترو الخاصة فعلمت أنه كان يستقبل كل يوم سيدة طويلة القامة، نحيفة الجسم . والمعروف ان جوزفين دى بوهارنيه كانت تقطن فى ذلك الوقت فى فونتنيبلو ، وهى طويلة القامة ونحيفة الجسم . ولكن كاليوسترو هرب فى مساء اليوم المحدد لاعتقاله . وفى صباح اليوم التالى سافرت جوزفين دى بوهارنية فجأة . وبعد شهر واحد تمت ولادة الطفلة فى باليرم .

« وليس هناك شك بعد هذا فى أن جوزفين دى بوهارنية ، التى صارت امبراطورة فيما بعد هى أم تلك الطفلة . ومما يؤيد ذلك انه بعد انقضاء ثمانية عشر عاماً على ولادة الطفلة تبنتها الامبراطورة وراحت تعاملها معاملة الأم لابنتها . كما ان نابليون كان يداعبها كما يداعب الانسان طفلة، وكان يدعوها بجوزين على سبيل التدليل .

« وسقط الامبراطور ، وانهارت الامبراطورية فتبنى القيصر اسكندر جوزين ورحلها الى روسيا باسم الكونتس دى كاليوسترو

واستطرد البارون يقول :

« وكان هذا التقرير سبباً فى أفول نجمها وابتعادها عن قصر التويلرى ، فصدر أمر بنفيها هى وأخاها ، فسافر أخوها الى المانيا ، وانتقلت هى إلى ايطاليا ونزلت فى مودانا حيث التقى بها ضابط شاب يدعى البرنس

داركولا . وقد حياها هذا الضابط ، وهذا الضابط هو الذى أظهر لكم حقيقة شخصيتها اليوم .

وهنا نهض البرنس داركولا وقال :

– اننى لا اعتقد فى المعجزات ، ومع ذلك فان ما أقوله الآن معجزة . اننى أقسم بشرفى العسكرى ان هذه المرأة هى نفسها المرأة التى حييتها فى موادنا منذ ٢٢ سنة .

فسألته جوزفين متهكمة :

– حييتها فقط ؟

– ماذا تعنين ؟

– أعنى ان ضابطاً فرنسياً لا يكتفى بتحية إمرأة جميلة ... وانك نطقت بكلمات أخرى .

– هذا جائز . ولكننى لا أذكرها ..

– أما أنا فأذكرها . انك دنوت من المرأة المنقبة وطبعت على يدها قبلة طويلة ، وقلت لها : « أرجو يا سيدتى أن يسعدنى الحظ فألتقى بك مرة أخرى »

ارتبك البرنس داركولا أمام هذه الذاكرة القوية وقال :

– ياالله !

ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وقال :

– اننى نسيت ذلك يا سيدتى ، وان كانت تلك المقابلة الأولى قد تركت انطباعاً حسناً فى نفسى فان المقابلة الثانية قد محت هذا الانطباع .

– ومتى كانت هذه المقابلة الثانية يا سيدى ؟

– كانت في فرساى ، بعد سنة كاملة من المقابلة الأولى . كنت أرافق المؤتمر الفرنسي الذى عقد نصوص الهدنة فرأيتك جالسة فى مقهى تشربين وتتسامرين مع بعض الضباط الألمان كان من بينهم جاسوس لبسمارك . وقد عرفت حينئذ الدور الذى كنت تقومين به في قصر التويلرى ، وعرفت لحساب من تشتغلين .

زادت دهشة راوول داندينى عن ذى قبل . خيل إليه انه يسمع قصة خيالية صورت من دماغ عبقرى ، وعجب كيف يعتقد هؤلاء الرجال فى صدور مثل هذه القصة ، وكيف يصدقون ما يعزونه الى هذه المرأة . هل أصابهم العمى فلا يرون أنها فى عفوان الشباب ؟

وختم البارون حديثه قائلاً :

– هذا هو ماضى هذه المرأة .. وهناك أشياء أخرى كثيرة فانني أريد أن أعرف اذا كنتم تعدون لهذه التهم أهمية ما ... إذا كان الأمر كذلك فأحرى بكم أن تشنقوني أو تعدموني حرقاً .

– كلا . إنما ذكرت كل هذه الأحداث لأعطي للموجودين صورة حقيقية عنك

– وهل تظن أنك أفلحت في ذلك ؟

– أجل ... من الناحية التى تهمنا .

– انك تقنع بالقليل . ومـا هى الروابط التى تراها بين هذه الأحـداث المختلفة ؟

– أرى ثلاث روابط .. أولها شهادة الذين عرفوك والذين بواسطتهم استطعنا إستعادة مراحل حياتك مرحلة مرحلة . وثانيا اعترافك ...

– إعترافى ؟

– أما أعدت للبرنس داركولا نفس الحديث الذى تم بينك وبينه فى محطة مورانا ؟

– هذا صحيح ... وبعد ذلك ؟

– وثالثاً هذه الصورالثلاث لك أليس كذلك ؟

قال ذلك وعرض عليها ثلاث صور ، فنظرت إليها وقالت :

– هذه الصور الثلاث التقطت لى فعلاً .

قال جودفرى ديتيج :

– التقطت الصورة الأولى في موسكو في سنة ١٨١٦ لجوزفين ، كونتس دى بلسامو . والتقطت الصورة الثانية لها فى سنة ١٨٧٠ والأخيرةُ أخذت لها فى باريس فى عهدنا هذا . والصور الثلاث عليها توقيعك ، وهو توقيع واحد بنفس الخط ، وهذا يثبت ..

فقاطعته قائلة فى سخرية :

– هذا يثبت ان نفس المرأة احتفظت بشبابها وبجمال وجهها ونضارته من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٩٢ ... إذن ... الى النار .

وضربت الأرض بقدمها الرقيقة وقالت :

– ولكن لنفرغ من هذه المسألة ... بماذا تتهموننى ؟ ... ولماذا أتيتم بى هنا ؟

– أتينا بك هنا لنواجهك بالجرائم التى ارتكبتها .

– أية جرائم ؟

– كنا اثنى عشر صديقاً ، نسعى وراء غاية واحدة ، ولكننا الآن تسعة فقط . وقد مات الثلاثة الآخرون ... ما توا قتلاً بيدك .

واستطرد البارون ديتيج يقول :

– منذ ثمانية عشر شهراً كان دينيس سان هوبير ، أصغر أصدقائنا يقوم بالصيد فى االهافر . وقد خرج بعد ظهر أحد الأيام وبندقيته فوق كتفه، وصعد فوق التل لكى يرى منظر غروب الشمس وراء البحر . ووجدت جثته ، فى الصباح ، مهشمة فوق صخور الشاطىء . وقد استبعد المحققون فكرة الانتحار ، ولم يخطر لهم ان فى الأمر جريمة واعتبروا الأمر قضاء وقدراً .

« وفى شهر يولية خرج جورج دى ايستونال للصيد فى صباح مبكر فى ضواحى دييب وبعد ساعتين عثروا على جثته مهشمة فوق صخور الشاطىء هو الآخر . ومات وخلف وراءه زوجة وطفلتين ، واعتبر الأمر قضاء وقدراً أيضاً !

ولكننا لم نعتقد ذلك ، فلا يمكن أن يصيبنا القدر بضربة متشابهة مرتين. لقد اتفق اثنى عشر صديقاً على انجاز عمل كبير الأهمية ، فلم يكد يتم بينهم الاتفاق حتى مات منهم اثنان .أفلا يدل على أن هناك يداً أثيمة تعبث وتستهتر ؟

« ارتاب البرنس داركولا فى الظروف التي أحاطت بموتهما ، وأطلعنا على شكوكه . كان يعرف أننا لسنا الوحيدين الذين نهتم بذلك العمل العظيم الذى اتفقنا على القيام به . وكان يعرف أن حفلة سرية أقيمت فى قصر

الامبراطورة أوجينى ذكرت فيها للكونتس كاليو سترو نفس اللغز الذى نسعى الى حله ... لغز الشمعدان ذى السبعة فروع .

« وقمنا بالتحقيق فى هذه الناحية ، فعلمنا أن سيدة تدعى بللجرينى كانت تقيم وحدها فى فندق فى أحد شوارع باريس المنعزلة ، وأنها كانت تغيب عن ذلك الفندق شهوراً طوالاً .. وعلمنا كذلك أن أصحاب الفندق يعرفونها باسم الكونتس دى كاليو سترو .

واستحضرنا صورة لها وارسلناها الى البرنس داركولا .. وكان وقتئذ فى أسبانيا ، فعرف فيها المرأة التى سبق له أن رآها منذ ٢٢ سنة .

« وثبت لنا ان هذه المرأة كانت موجودة في دييب فى اليوم الذى لقى فيه جورج دى ايستوفال حتفه .

« وقد ذكرت لى أرملة جورج دى ايستوفال أن زوجها تعرف فى أواخر أيامه بامرأة وان هذه المرأة قد عذبته كثيرا . وترك سان هوبير ورقة يعترف فيها أنه كان من الغباء بحيث كتب فى مذكرته بضع كلمات تتعلق بلغز الشمعدان ذى السبعة فروع ، وبالاتفاق الذى تم بين الأصدقاء الأثنى عشر، وان هذه المذكرة سرقتها منه إمرأة .

« أدركنا حينئذ كل شىء .. أدركنا أن المرأة أوقعت سان هوبير وجورج دى ايستوفال فى حبائلها لكى تعرف منهما ما تريد ، وأنها بعد أن استخلصت منهما ماتريد خشيت أن يطلعا أصدقاءهما على أمرها فقتلتها . هذه المرأة هى التى ترونها أمامكم .

سكت جودفرى ديتيج . وساد الصمت رهيب عميق ، أخذ راوول يتأمل أثناءه جمال المرأة وقد شعر بالقلق بعد أن سمع التهم التى وجهت إليها، وأيقن أن هناك خطراً ما حقاً يتهددها .

وسألها البارون فجأة :

– هل ينبغى أن أذكر لك الجريمة الثالثة ؟

– كما تشاء ، فكل ما تقوله هراء . أنك تذكر أسماء أشخاص لم اسمع بهم من قبل ، فلا يهمني أن تزيد جريمة أو تنقص ...

ألم تعرفي سان هوبير وجورج دي ايستوفال ؟

هزت كتفيها ولم تجب . فانحنى جود فري ديتيج قليلاً وقال بصوت خافت:

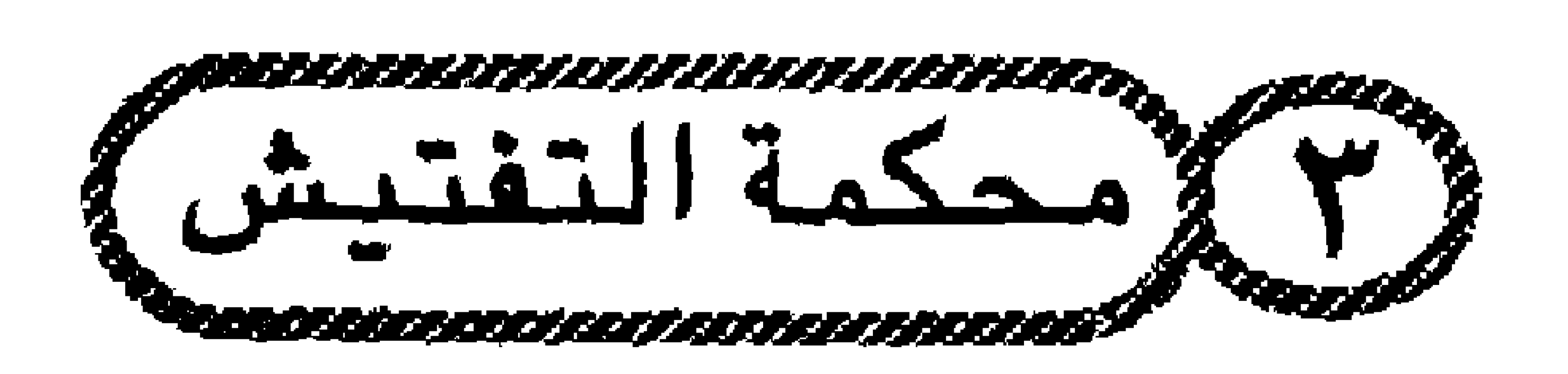
– وبومانيان ؟

فرفعت عينيها إليه وسألته :

– بومانيان ؟

– نعم . ثالث أصدقائنا اللذين قتلتهم . لم يمض على موته وقت طويل ... لقد مات بالسم ... أما عرفته ؟

* * *



٣ محكمة التفتيش

ما معنى هذا الاتهام ؟ نظر راوول الى بومانيان ، وكان هذا الأخير قد نهض وأخذ يسير وهو مطاطىء الرأس إلى أن وصل خلف جوزفين بلسامو ، فجلس ، ولم تنتبه المرأة إليه .

أدرك راوول غرض بومانيان عندئذ وعرف الشرك الذى يدبره للمرأة ... إذا كانت قد قتلت بومانيان ، واذا كانت تؤمن بموته حقاً فانها ستفزع أيما فزع حين تراه واقفاً أمامها بلحمه ودمه . إما اذا لم تضطرب ، وإذا بقيت مالكة لجاشها فسيكون هذا أكبر دليل فى صالحها . وقال البارون :

– ألا تذكرين هذه الجريمة هى الأخرى ؟ ... ألم تعرفى بومانيان ؟

تكلمى ... ألم تعرفيه

لم تنطق جوزفين ، وفطنت فجأة الى أن وراء إصرار البارون والحاحه فى طلب الرد شيئاً فتوخت الحذر ، وارتسمت على ملامحها أمارات قلق خفيف، واستشعرت الخطر المحدق بها فنظرت حولها كحيوان طريد .

نقلت بصرها من جود فرى ديتيج إلى لا فوباليير ، ثم تحولت الى حيث جلس بومانيان و ماكادت عيناها تقعان عليه حتى ارتدت الى الوراء مذعورة، كما يفعل المرء حين يرى شبحاً يظهر أمامه فجأة . و أسدلت أهدابها ، مدت يديهاالى الأمام كأنها تحاول أن تبعد الرؤية المخيفة وتمتمت تقول

بومانيان ... بومانيان !

وتمايلت تمايل الشجرة فى مهب الرياح ، فحسب بومانيان أنه أفلح وغمره فرح شديد ، بيد أن جوزفين لم تلبث أن اعتدلت واستردت ابتسامتها الغامضة وقالت فى هدوء :

– انك أختفتنى يا بومانيان ، فقد قرأت فى الجرائد نبأ موتك ... ولكن لماذا أراد أصدقاؤك أن يخدعونى ؟

ابتهج راوول حين رأى جوزفين تسيطر على الموقف من جديد ، ورأى فيها عدواً لا يستهان به . أما بومانيان فقد ثارت ثائرته ، فصاح يقول وقد ذهب الجنون بعقله :

– هذا كذب ... هذه فرية ... أنت كذابة ... ان ابتسامتك هذه لا تنطوى إلا على الخسة والخيانة والخداع والجبن .

كان صوته يتهدج من فرط الغضب ، فقالت جوزفين بهدوء ورفق :

– هدىء من روعك يا بومانيان .

ولكن غضبه زاد ، وحاول أن يتمالك نفسه ولكن الكلمات اندفعت من بين شفتيه اندفاعاً ، فقال موجهاً الخطاب الى أصدقائه :

– أردت ان أنتقم لصديقى سان هوبير وجورج دى ايستوفال فعلمت على الاتصال بها ... ومضيت الى أحد الأماكن التى تقام فيها الجلسات الروحانية حيث كنت واثقاً من انى سأجدها .

« وقد وجدتها هناك فى الواقع . واعترف اننى ما رأيتها حتى ترددت .. كيف يمكن أن تكون هذه المخلوقة الوديعة قاتلة سفاكة .

« وتبعاً لتعليماتى جلس الصديق الذى اصطحبته معى بجوارها . وتبادل

الحديث مع من بجانبها ، ثم ناداني باسمي . وما كاد يفعل حتى رأيت الاهتمام ينطبع على وجهها فتأكدت أنها تعرف اسمي ، وانها قرأته في المذكرة التي سرقتها من دنيس سان هوبير . وانتبهت من تأملاتها وأفكارها فجأة . وماهي إلا دقيقة حتى وجهت الى الحديث . وتحدثت معي ساعتين كاملتين استخدمت فيها كل وسائل الفتنة والاغراء ، وغادرتها عى باب بيتها بعد أن وعدتها بالعودة إليها في اليوم التالي .

« شعرت في نفس اللحظة التي غادرتها فيها بأنني وقعت في غرامها .

كان يجدر بي أن أهرب منها عندئذ .غير أن السيف كان قد سبق العزل، فضاع عقلي وجننت شغفاً بها . ولم ألبث أن نسيت دماء سان هوبير وجورج دي ايستوفال ، ونعمت بغرام فاسد محرم ... كانت ابتسامتها تربطني بها فلا أستطيع منها فكاكا ... ولم أنس جرائمها فحسب على ارتكبت ما هو أفظع ، فنطقت رغماً عني ببضع كلمات تتعلق بالشمعدان ذي السبعة فروع ، وعرفت هذه المرأة مني كل ما نعرفه .

« لماذا فشلت ؟ لست أدري . لقد كانت تشير في سياق حديثها إلى لغز الشمعدان ذي السبعة فروع الذي أخبرت الملكة ماري انطوانيت كاليو سترو به . واستولى على الجبن فجأة فأخبرتها باتفاقنا وأنا أخدع نفسي وأقول انها ستكون حليفتنا ، ولكنني كنت واهماً ومجنوناً .

ولم يلبث رشدي أن عاد الي ، ففي ذات يوم ، منذ ثلاثة أسابيع عزمت على السفر الى اسبانيا لقضاء بعض الأعمال . وأخبرتها بنيتي في صباح اليوم وودعتها . وخرجت في الساعة الثالثة بعد الظهر لانجاز عمل غرب باريس ... وتذكرت انني لم أصدر بعض التعليمات لخادمي فعدت ودخلت من باب الخدم . وكان خادمي قد خرج وترك باب المطبخ مفتوحاً . ولكنني

سمعت صوتاً فى الداخل ، فاقتربت ببطء ، ورايت هذه المرأة ، وكانت المرآة تعكس لى صورتها

« كانت تفتش فى حقيبتى »، فأخذت أراقبها .

« وفتحت صندوقاً صغيراً فيه أقراص أتناولها ضد الأرق ، ورفعت أحد هذه الأقراص ، واستبدلته بقرص آخر أخرجته من حقيبة يدها .

« فوجئت بهذا المنظر ، فلم أفكر فى الهجوم عليها ، وأخذها متلبسة بجريمتها . ولما انتبهت الى نفسى وجدتها قد اختفت ، فأخذت الاقراص الى صيدلية قريبة وحللتها فوجدت واحداً منها يحتوى على كمية كبيرة من السم تكفى لهلاكى .

كان هذا اكبر دليل على ما اقترفته من جرائم ، وقد أرادت أن تتخلص منى كما تخلصت من سان هوبير وجورج دى ايستوفال ، وكما ستتخلص من أصدقائى الباقين لتنفرد هى وحدها بالكنز الذى نسعى وراءه .

وأرسلت خطاباً الى صديق لى يقيم فى أسبانيا . وبعد أيام نشرت بعض الجرائد نبأ موت رجل يدعى بومانيان فى مدريد .

ومن ذلك الوقت وأنا أعيش فى الظلام ، وأتتبع حركاتها وأعمالها ، فذهبت أولاً إلى روان ثم الي الهافر ثم إلى دييب ، أى فى نفس الأماكن التى كنا نوالى فيها أبحاثنا . وكنت قد اعترفت لها بأننا سنذهب الى دير فى مدينة الهافر ونبحث فيه فسبقتنا إليه وقامت بتفتيش دقيق ، وفقدت أثرها بعد ذلك فى روان . وقد ذكر لكم صديقى ديتيج ما بقى من قصتها ، فقد نصبنا لها شرك ، فنشرنا فى الجرائد أن فلاحاً عثر فى أراضيه على شمعدان نحاس له سبع فروع . فجاءت بنفسها ووقعت فى الشرك .

هذه هي المرأة التي ترونها أمامكم ، وأنتم تدركون الأسباب التي تحول دون تسليمها إلى رجال القضاء ، فان الفضيحة ستنالنا قبل أن تنالها هي ، وسيتعذر علينا بعد ذلك أن نقوم بالعمل الذي نسعى وراءه . وعليه فان واجبنا يدعونا إلى أن نحاكمها ونجازيها بما تستحق .

نهضت الكونتس دي كاليو سترو ونظرت الى خصمها . بدون اكتراث وقالت :

– بأي حق تحاكمونني . إن هذا من شأن القضاة وحدهم . تقولون انكم تخشون الفضيحة ، وفيم يهمني هذا ؟ ... أطلقوا سراحي .

– سراحك ... نطلق سراحك لكي تستمرين في قتلنا ... انك في قبضتنا ولن نتركك إلابعد أن تنالي جزاءك .

– جزاء ؟ أي جزاء ؟ لو أن بينكم رجلاً يعرف معنى الحق ، والمحاكمة لضحك من اتهاماتكم السخيفة وبراهينكم العوجاء .

فقال بومانيان : اننا لا نريد كلاماً أجوف ... بل نريد أدلة تثبت لي انني أخطأت في أمرك ... تثبت لي انك لست مجرمة .

–ان جريمتي الوحيدة هي انني أسعى وراء نفس الغاية التي تسعون أنتم إليها .

– وسان هوبير ، وجورج دي ايستوفال ؟ ألم تقتليهما ؟

– سان هوبير ... دي ايستوفال ؟ انني لا أعرفها . وقد سمعت عنهما اليوم لأول مرة .

– وأنا ؟ ... أنا ؟ ... أما عرفتني ... ألم تحاولي قتلي بالسم ؟

– كلا .

فصاح يقول وقد خرج عن طوره :

– ولكنى رأيتك يا جوزفين بلسامو ... رأيتك كما أراك الآن ... رأيتك وأنت تضعين السم وقد استحالت ابتسامتك الى تكشيرة قاسية وحشية مثل الشيطان .

فهزت رأسها وقالت :

– لم أكن أنا التى رأيتها ... لقد ذهب الحقد بعقلك يا بومانيان ، وان روحك المتعصبة تثور ضد خطيئه الحب ، أليس كذلك ؟

هل تسمح لى أن أدافع عن نفسى ؟

– هذا من حقك .

– انظر الى الصورة التى التقطت للكونتس دى كاليو سترو فى موسكو فى سنة ١٨١٦ . انظر اليها جيداً . انها صورتى ، أليس كذلك ؟

– نعم .

– اذا كانت صورتى كما تقول فان معنى قولك هذا أننى كنت أعيش فى ذلك الوقت ، أى منذ ٨٠ سنة . كان عندى اذ ذاك ٢٥ سنة أو ربما ٣٠ . فكر جيداً ، ها أنت تتردد الآن ... ها أنت قد أخذتك الحيرة فلا تستطيع أن تتأكد . والآن ، افتح إطار هذه المرآة ، ستجد فى داخله صورة أخرى لا مرأة تضع على رأسها خماراً خفيفاً انسدل حتى أهدابها ... هل هى صورتى هى الأخرى ؟

ووضعت على رأسها خماراً خفيفاً انسدل حتى أهدابها بينما كان بومانيان ينظر الى الصورة . ونقل بصره من الصورة إليها ثم صاح :

– انها صورتك . انها صورتك . ليس هناك أى شك فى ذلك .

- اقرأ التاريخ المنقوش فى الناحية الأخرى اذن ؟

فقرأ بومانيان : صنعت فى ميلانو فى سنة ١٤٩٨

كررت قوله قائلة : في سنة ١٤٩٨ ، أى منذ أربعمائة سنة .

وضحكت ضحكة رنانة واستطردت تقول :

- لا تنظر الى هكذا . لقد كنت أعلم بوجود هذه الصورة ، وقد كنت أبحث عنها . ثق أنه ليس في الأمر معجزة . لن أقول لك اننى وقفت أمام المصور ، وان عمرى أربعمائة سنة ، فهذه صورة العذراء مريم ، رسمتها ريشة المصور برنارد ينولوينى ، تلميذ ليونار دى فنش .

وسكتت سكتة قصيرة ثم قالت بلهجة الجد :

- هى فهمت الآن معنى ما أقول يا بومانيان ؟ هناك شبه غريب بين العذراء مريم وبين فتاه موسكو ... شبه غريب : فلماذا لا تفرض أن هناك أمرأة أخرى تشبهنى ، وان تلك المرأة هى التى رأيتها فى بيتك ، والتى قتلت سان هوبير ودى ايستوفال ؟

- ولكننى رأيتك .. رأيتك بعينى كما أراك الآن .

- ولكنك ترى أيضاً الصورة التى رسمت منذ أربعمائة سنة والآخرى التى التقطت منذ ثمانين سنة ، والثالثة التى التقطت منذ خمس وعشرين سنة ... أهذه الصورة تمثلنى ؟

وقدمت إليه وجهها الفاتن الجميل ، وأسنانها الناصعة البياض وخديها المتوردين المزدهرين فانتابه الخور والضعف وتمتم يقول :

- أيتها الساحرة ! اننى أكاد أصدق ذلك فى بعض الأحيان . ولكن من يدرى ؟ ربما تكونين كاذبة ... ان المرأة التى فى الصورة لها بقعة سوداء

فى أسفل كتفها ... وقد رأيت هذه البقعة على كتفيك ... أريهم إياها ليعرفوا حقيقتك .

كان العرق يتصبب من جبينه ، ومد يده الى كتفها ، ولكنها دفعته بعيداً عنها وقالت :

– كفى يا بومانيان . انك لا تعرف ما تفعل ولا تقول . اننى أصغيت إليك فى صمت واستنكار ، فأنت قد تكلمت عني كما لو كنت عشيقة لك وأنا لم أكن ؟ أنت تكذب ... لماذا لا تقول لهم أنك فشلت ؟ لماذا لا تقول لهم انك تعقبتنى شهوراً وشهوراً تتوسل الى وتهددنى دون أن تفلح حتى فى لمس ظهر يدى بشفتيك ؟ لماذا لا تقول لهم أن هذا هو سبب حقدك على و معاملتك لى بهذه الصورة ؟

« لماذا لا تقول لهم انك عندما رأيتنى أصدك أردت أن تنتقم منى ، فنصبت لى هذا الشرك ، وقدمت لأصدقائك منى صورة خاطئة محاولاً أن تقنعهم إننى جاسوسة سفاكة وساحرة ؟

لزم بومانيان الصمت ، فقد انتهى النضال بفشله ، ولم يفكر فى إلقاء أية تهمة أخرى عليها . وكان أصدقاؤه قد تغيرت ملامحهم وفارقتهم تلك القسوة التى كانت قد انطبعت على وجوههم أثناء الاتهام الذى ألقاه بومنيان فدخل الشك فى قلوبهم ولحظ راوول ذلك فداخله هو الآخر الأمل فى نجاة جوزفين.

إلا ان بومنيان تبادل حديثاً خافتاً مع البارون ، ثم التفت الى أصدقائه وقال :

– لقد سمعتم أقوال الاتهام والدفاع ، ورأيتم كيف واجه البارون ديتيج المتهمة بالتهم التى لا تقبل أى شك ، وكيف دافعت عن نفسها ، مستترة وراء شبه غريب بينها وبين إمرأة لا وجود لها إلا فى مخيلتها . انها عدوة لا

يستهان بها ، وستفتك بنا الواحد بعد الآخر وفى بقائها على قيد الحياة هلاكنا جميعاً . غير انى لا أقول أنه يجب أن تموت ، بل يكفى أن تختفى فقط حتى لا تستطيع أن تصيبنا بضرباتها .

« وعليه فقد عقدنا العزم على شيء ... ستمر باخرة انجليزية بالبلد هذه الليلة . وسينفصل عنها قارب سيقترب من الشاطيء . وسنلتقى بهذا القارب ونسلم هذه المرأة لربان الباخرة فيمضى بها الى لندن ويسجنها فى مستشفى للمجاذيب إلى أن نفرغ من مشروعنا . ولا أظن أن أحداً منكم يعترض على ذلك .

وهنا أدرك راوول الغرض الذى يرمى إليه بومانيان ، وقال يحدث نفسه :

– انهم سيغرقونها ... ليست هناك باخرة انجليزية . بل هناك قاربان ، أحدهما مثقوب ستوضع الكونتس فيه فيغرق بها وتختفي ولا يعرفْ أحد ما حدث لها .

قابل المدعوون قوله بالصمت ، فحكموابصمتهم على المرأة بالموْت وهم لا يدرون .

ونهضوا جميعاً ، وغادروا الغرفة واحداً ، واحداً للعودة إلى بيوتهم ، وما هى إلا هنيهة حتى لم يبق فى الغرفة إلا اوسكار دى بنيتو .

وهكذا انتهت المحاكمة ، وقضى على جوزفين بلسامو بالموت .

ومرت ساعة ، وبدأ الظلام يرسل خيوطه ، فنظرت المرأة الى ساعتها ، وحاولت أن تجر الحديث مع بنيتو فابتسمت ابتسامة مغرية ، ونظرت إليه نظرة كلها فتنة واغراء ، بيد ان بنيتو كشر فى وجهها فانزوت مكانها .

وعاد جود فرى ديتيج فى الساعة السابعة فأشعل مصباحاً ، وقال لأوسكار دى بنيتو .

أذهب وابحث عن المحفة فى المخزن .

ولما أصبح وحده مع المرأة الشابة بان عليه التردد . ورأى راوول انه يريد أن يقول شيئاً ، ولكنه يتردد ، وأخيراً قال :

- صلى وابتهلى الى الله يا سيدتى .

فقالت غير فاهمة :

- اصلى وابتهل الى الله ؟ ... ولماذا ؟

- أردت فقط أجعلك على بينة ... هناك أوقات يصلى فيها المرء ويبتهل الى الله كما لو كان يصلى صلاته الأخيرة .

اضطربت الكونتس وبدا الفزع فى عينيها ، وأدركت حقيقة موقفها فجأة فتصلبت يداها فى عصبية شديدة وقالت :

- صلاتى الأخيرة ؟ ... ولكننى لن أموت ... أليس كذلك ؟ ان بومانيان لم يذكر الموت . انه تكلم عن مستشفى للمجاذيب .

ولما لم يجب صاحت تقول :

- أوه ... رحماك يا ربى . انه خدعنى ...انهم سيقتلوننى غرقاً ... أو اه... ان هذا فظيع ... فظيع ... النجدة !

ولكنها ما كادت تنطق بالكلمة الأخيرة حتى غطى البارون رأسها وأطبق بيده على فمها فاختنقت الكلمات فى حلقها .

وعاد بنيتو بعد قليل فوضعاها فوق المحفة وأوثقاها بها .

* * *

٤ القارب المثقوب

تكاثف خيوط الظلام ، وجلس جود فرى وابن عمه بجانب المحفة ، واستولى عليهما الخوف من الجريمة المهولة المقبلين عليها ، وتملكهما انفعال كبير . وبعد أن نام جميع الخدم ، وتأكدا أن كلاريس فى غرفتها حملا المحفة وخرجا من القصر ، و إجتازا الغابة فى طريقهما الى النهر . وبلغا سلم الأبرشية ، وكان طويلاً وضيقاً ، فوجدا صعوبة كبرى فى النزول. ولما وصل الى نهايته كانا يلهثان بشدة . واقتربا من القاربين . وكان البحر هادئاً ، فوضعا المحفة داخل القارب وهما يرتعشان من الخوف .

واستقلا القارب الثانى ، وجعل جود فرى يجدف بينما أمسك بنيتو بحبل مربوط بالقارب الأول وراح يشده خلفها .

وقطعا شوطاً كبيراً ، وذاد خوفهما فجأة ، فكف جود فرى عن التجديف وقال :

– اننا قطعنا شوطاً كبيراً فلنفرغ من هذه المسألة .. انزع الفلينة

– بل انزعها أنت

فدفع جودفرى ابن عمه جانباً ثم أمسك بالحبل وجر القارب إليه ثم انحنى ورفع الفلينة بيد مرتجفة .

وسمع الماء يندفع من الفجوة التى أحدثها الثقب ، فكاد يفقد عقله ، وأراد أن يعيد الفلينة مكانها غير أن بنيتو لم يمهله فضرب المجداف فى الماء والعرق يتصبب من جبينه وابتعد بالقارب ، فصاح جود فرى يقول : قف ، قف ... اننى أريد أن أنقذها .

ولكن بنيتو لم يصغ إليه فما هى إلا هنيهة قصيرة حتى كان القارب قد ابتعد بهما ، وغاب القارب الآخر عن ناظريهما أما الكونتس فقد انتظرت الموت فى هدوء ، فلم تحاول أن تصرخ أو تصيح طالبة النجدة . ومال القارب على أحد جانبيه فحسبت انه يميل تحت ثقل الماء و أنه سيغوص بها فى الاعماق . وأدهشها أنها لم تحس ببرودة الماء . وادهشها اكثر أن القارب لا يزال على سطح البحر . وبقى مائلا فأدركت أن شخصاً متعلق به، وتساءلت من يكون ذلك الشخص ، وفجأة سمعت صوتاً رقيقاً مرحاً يقول :

– اطمئن ... أنا صديق أتيت لأنقاذك .

وانحنى الصديق فوقها ، وأسرع يقول حتى من غير أن يتأكد ان كانت قد سمعته أم لا :

– لم يسبق لك أن رأيتنى . اسمى راوول ... راوول داندريزى . كل شىء على ما يرام اننى سددت الثقب بقطعة الفلينة . وهو اصلاح مؤقت ولكن فيه الكفاية الآن ، ثم اننا سنتخلص من هذا الحجر الكبير .

وقطع قيود المرأة بسكين، وأمسك بالحجر وبذل جهداً كبيراً حتى رفعه وألقاه فى البحر ، ثم كشف عن رأس المرأة الشابة وانحنى أمامها وقال :

– ما أشد سرورى ! جرت الأحداث بأفضل كثيرا مما كنت أرجو ، وها أنت قد نجوت . لم يجد الماء الوقت الكافى لكى يرتفع إليك . وهذا من حسن حظك . هل تتألمين ؟

همست بصوت يكاد لا يسمع :

– نعم . كاحلى ... انهم شددوا القيد كثيراً .

– من يكون هذا بشيء ... المهم الآن هو أن نمضى الى الشاطيء . لا ريب أن جلاديك الاثنين قد بلغا الشاطيء و يرتقيان السلم مسرعين . ليس هناك ما نخشاه إذن .

وأخذ يعمل بسرعة ومهارة ، فتناول مجدافا كان قد أخفاه فى المؤخرة ، وراح يجدف بطريقة جانبية حتى لا يراه أحد من الشاطيء ، وهو يتابع تفسيراته فى لهجة مرحة كما لو انه لم تحدث تلك المأساة

– اه . ولكن اسمحى لى أن أقدم نفسى أولاً ، رغم اننى لست فى حالة لائقة ، فكل ما أرتديه عبارة عن شورت علقت به سكيناً ... أنا راوول داندريزى ، فى خدمتك ، مادام القدر قد شاء ذلك ... وهو قدر بسيط وجميل.. مجرد حديث استرقت السمع إليه ، وعلمت منه انهم يدبرون مؤامرة ضد امرأة ، فسبقتهم عندئذ وأسرعت إلى الشاطيء . وعندما ظهر ابنا العم أسرعت وغطست فى الماء ، ولم يبقى أمامى عندئذ الا أن اتشبث بقاربك ، وهذا ما فعلت . ولم يفطن أى منهما انهما يصطحبان مع ضحيتها بطلاً فى السباحة عاقداً عزمه على إنقاذها . سوف أروى لك كل هذا بالتفصيل فيما بعد ، عندما تسمعيننى أما الآن فيخطر لى اننى أتكلم فى فراغ .

وتوقفت لحظة فقالت :

– اننى اتألم ... انا مرهقة .

– إليك نصيحة اذن ... افقدى وعيك ... فلا شيء يريح اكثر من فقدان الوعى .

ولا ريب انها أطاعته ، لأنها بعد بضعة تأوهات راحت تتنفس فى هدوء

وانتظام . وغطى راوول وجهها وانطلق من جديد وهو يقول :

– هذا أفضل . استطيع الآن أن اتصرف دون أن أقدم حساباً لأحد .

ولم يمنعه ذلك من أن يناجي نفسه بكل الارتياح الذى يشعر به المرء نحو نفسه ونحو أفعاله .. وانطلق القارب بكل سرعة تحت تجديفة . وظهرت صخور الشاطىء .

وعندما اقتربت مقدمة القارب من الصخور ، وثب منه ثم حمل المرأة الشابة بكل البساطة التى سمحت له بها عضلاته القوية ووضعها على الشاطىء وهو يقول :

– بطل ملاكمة أيضاً ومصارعة رومانية كذلك . سأعترف لك مادمت لا تسمعيننى باننى ورثت كل هذه المزايا عن أبى ... وغيرها الكثير أيضاً ... ولكن كفى هزراً . استريحى هنا ، تحت هذه الصخرة ، بعيداً عن خطر الأمواج الغادرة ، أما أنا فسأعود ، وأعتقد ان من بين مشروعاتك الانتقام من ابنى العم ، ولهذا فيجب أن لا يجدا القارب ، وان يعتقدا انك غرقت فعلاً. وإذن فصبر جميل .

ومن غير أن يضيع دقيقة واحدة قام راوول بانجاز كل ما قال ، فعاد بالقارب الى عرض البحر من جديد ورفع قطعة الفلين . وإذ تأكد من أن القارب سيغرق بعد قليل ، ألقى بنفسه فى الماء ، وعندما عاد الى الشاطىء استرد ثيابه ، وكان قد اخفاها في أحد التجويفات ، وتخلص من الشورت المبتل وأرتدى ثيابه . وقال وهو ينضم الى المرأة الشابة :

– هلمي بنا . علينا ان نصعد الأن ، وليس هذا بالأمر الهين .

وأفاقت من اغماءتها شيئاً فشيئاً ، ورآها على ضوء فانوسه تفتح عينيها . وساعدها على الوقوف ، ولكن الألم كان شديداً فصرخت ووقعت من جديد ،

فخلع حذاءها ورأى على الفور أن جوربها ملوث بالدم ، ولم يكن الجرح خطيراً ولكنه كان موجعاً . وربط كاحلها بمنديله وقرر الرحيل فوراً . فحملها فوق كتفه وبدأ يصعد السلم ، وكان مكوناً من مائة وخمسين درجة . واذا كان جود فرى ديتيج وبنيتون وجدا صعوبة فى هبوطها فقد كان الجهد الذى بذله راوول أشد وأصعب ، واضطر الى التوقف أربع مرات وهو يتصبب عرقاً ، ويخيل إليه أنه سيتعذر عليه الاستمرار

ومع ذلك ، فقد استمر وهو لا يزال مسروراً مبتهجاً . وعندما توقف للمرة الثالثة جلس وأرقدها على ركبتيه ، وخيل إليه أنها تضحك لمداعباته التى لا تنضب ، وعندئذ عاود الصعود وهو يضم الى صدره الجسد الناعم الذى أحست يداه بملامسته .

وإذ بلغ القمة لم يفكر فى أن يستريح ، فقد هبت نسمة باردة أخذت تسرى فى الأرض المنبسطة فتعجل أن يضع المرأة الشابة فى مكان آمن . واجتاز الحقول وحملها حتى مخزن للغلال مهجور ومنعزل ، أراد منذ البداية أن يصل إليه ، وكان قد توقع ما سوف يحدث ، فاتى فيه بزجاجتين من الماء وبزجاجة من الكونياك ، وبعض الطعام .

وأغلق الباب وهو يقول : اثنتى عشرة ساعة من الأمان والنوم . لن يعكر صفونا أحد . وغدا ، عند الظهر ، سأحصل على عربة وأمضى بك حيث تشائين .

وهكذا انفردا وحدهما ، أحدهما بجوار الآخر ، بعد أعجب وأغرب مغامرة صادفته ، وأصبحا بعيدان تماماً عن أحداث اليوم الفظيعة .. محكمة كمحاكم التفتيش ، وقضاة قساة وجلادون لا يرحمون ... بومانيان وجود فرى ديتيج ... والحكم بالموت ... والبحر ، والقارب المثقوب ...

وعلى ضوء المصباح الذى علقه لصق الجدار ، مدد المرأة الشابة فوق اكياس من التبن موجودة فى المخزن ، وعنى بها وقدم لها الماء فشربت ، وضمد جرحها فى رفق ، ووجدت الحماية والأمان في كنفه ، بعيداً عن الدسائس والمؤمرات . وإذ لم يعد هناك ما تخشاه من أعدائها أستسلمت بكل ثقة وأطبقت عينيها وغفت .

أضاء المصباح كل وجهها الذى ساعدت حمى الانفعالات على احمراره . وجثا راوول أمامها ، وتأملها طويلاً ... وكان جو المخزن الحار قد ثقل عليها ففتحت قميصها ورأى راوول كتفيها الجميلتين ، واستدارة عنقها الذى يفيض سحراً وفتنة .

وتذكر البقعة السوداء التى أشار بومنيان إليها ، ولم يستطع ان يقاوم الاغراء ، وأراد أن يتأكد إذا كانت تلك البقعة موجودة حقاً ، فأبعد القماش ورأى على اليمين شامة صغيرة على البشرة البيضاء الناعمة فتمتم :

– من أنت ... من أنت ومن أى دنيا أتيت ؟

تسلطت على الشاب نفس الاعتقادات التى تسلطت على بومانيان وأصدقائه ، وحيره أمر عمرها ، فجعل يسألها كما لو كان ينتظر ترد عليه وهى فى سباتها . وكانت شفتاه قريبتين من شفتيها ، وأحس بأنفاسها تسلل الى خياشيمه ، فأخذته النشوة وطبع عليهما قبلة ملتهبة .

تنهدت جوزفين ، وفتحت عينيها . ولما رأت راوول جاثياً بجوارها احمر وجهها بحمرة الخجل ، وابتسمت ثم أغمضت عينيها ثانية وعادت الى سباتها .

فقد راوول عقله ، وغلي الدم فى عروقه من فرط الرغبة والاعجاب ، وراح

يتمتم بعبارات ملتهبة ويقول :

– ما أجملك لم أكن أعرف أن فى الدنيا مثل هذا الجمال .. كفى عن الابتسام ...اننى أفهم الآن لماذا يعملون على إيلامك ، فان ابتسامتك تثير الاضطراب وتخلب الألباب ... وهم يريدون أن يمحوها حتى لا يراها أحد بعد ذلك . آه . لا تبتسمى إلا لى أنا وحدى ... أرجوك .

ثم أردف يقول فى شغف اكثر :

– جوزفين بلسامو ... ماأحلى اسمك ، وشد ما يحيطك به من غموض . قال بومانيان انك ساحرة ... ولكن لا ... إنما أنت فاتنة ... ظهرت من الظلمات ، وكأنك نور من الشمس .

« جوزفين بلسامو التى تتدفق فتنة وسحراً ... آه ... كل هذا يتفتح أمامى ... كل ما أراه إنما هو سعادتى ... إن حياتى بدأت فى اللحظة التى أخذتك فيها بين ذراعى ... لم أعد أذكر شيئاً عداك ... ولا أمل لى إلا أنت... رباه ... رباه ... ما أجملك ... اننى لأكاد أبكى يأساً .

قال لها كل ذلك وهو منحنى فوقها ، فمه قريب من فمها . ولكن القبلة المختلسة كانت الملامسة الوحيدة التى سمح بها لنفسه ، فلم يكن فى ابتسامة جوزفين بلسامو لذة واشتهاء فحسب وانما كان فيها من الاحتشام ما جعل راوول يشعر نحوها بالاحترام بحيث انتهى شغفه وولهه بكلمات خطيرة مفعمة باخلاص صبيانى .

– سأساعدك . لن يستطيع الاخرون إلحاق أى ضرر بك . إذا أردت ان تبلغى ، رغماً عنهم ، الهدف الذى يسعون إليه فاننى أعدك أنك سوف تفلحين . سأكون دائماً سواء بعيداً عنك أو قريباً منك ، ذلك الذى يدافع وينقذ . فثقى فى إخلاصى لك .

ونام أخيراً وهم يتمتم بكلمات ووعود لا معنى لها . وكان نوماً عميقاً لا تتخلله أية أحلام كنوم الأطفال الذين يحتاجون إلى تجديد قواهم المرهقة .

ودقت ساعة الكنيسة إحدى عشرة دقة راح يحصيها وهو فى دهشة متزايدة :

– الحادية عشرة صباحاً ... أهذا ممكن ؟

وتسلل نور النهار من خلال نافذة المخزن ومن الكوة التى فى سقفه وقال :

– أين أنت اذن ؟ ... اننى لا أراك .

وكان المصباح قد انطفأ فجرى نحو النافذة وفتحها على مصراعيها ، فامتلأ المخزن بالنور ولم ير أثراً لجوزفين .

واندفع نحو أكياس التبن وراح يقلبها ويلقيها بصراً فى غضب ، ولكنه لم يجد أحدا ، فق اختفت جوزفين بلسامو .

وأسرع الى الخارج ، ودار ببصره في الأرض الفضاء ولكن عبثاً ، فرغم انها جريحة ولا تستطيع أن تضع قدمها على الأرض غادرت المخزن وعبرت الأرض المنبسطة .

وعاد إلي المخزن لكي يقوم بتفتيش دقيق . ولكنه لم يكن بحاجة الى أن يبحث طويلاً فقد رأى على الأرض قطعة مربعة من الورق المقوى التقطها فاذا هى صورة للكونتس دى كاليو سترو .

وفى ظهرها سطران بالقلم الرصاص .

« شكرى لمنقذى . ورجائى أن لا يحاول رؤيتى ثانية ..

٥ أحد الفروع السبعة

عاد راوول الى دراجته وهو يسأل نفسه : ترى هل كان كل ما راه وسمعه أضغاث أحلام غريبة ومضحكة ؟!

على أنه سرعان ما أبعد عن ذهنه هذا السؤال ، فقد كانت الصورة التى بين يديه أكبر دليل على صحة الأحداث التى وقعت له أخيراً . وفوق ذلك فانه كان لايزال يذكر القبلة الملتهبة التى طبعها على شفتى جوزفين بلسامو .

لم يكن راوول داندريزى قد عرف الحب قبل الآن ، فقد كان يشغله عنه أطماع كثيرة ... كان يتوق إلى المجد والشهرة والى الجاه والثروة ... وقد ترك الظروف تسيره كيفما تشاء ، معتمداً على ماله من قوة فائقة وارادة صلبة وذكاء خارق .

قضى يومين فى عزلة تامة فى الغرفة الأرضية التى يشغلها فى حافة القرية . قضاها فى تفكير متواصل ... وفى مساء اليوم الثالث خرج يتمشى فى الضواحى ... أى فى نفس الأمكنة التى يحتمل أن يلتقى فيها بجوزفين بلسامو .

كان يعتقد ان المرأة الشابة لن تعود إلى باريس لكى تحمل أعداءها على الاعتقاد بموتها ولكى تستطيع أن تدبر مشروعتها فى الانتقام منهم . وكان

يعتقد ، من ناحية أخرى ، بأنها لا يمكن أن تكون قد ابتعدت عن المكان الذى يعسكر فيه الأعداء .

وفى اليوم الخامس جاءته رسالة من كلاريس تقول فيها :

« هل انتهى كل شيء يا حبيبى ؟ ... كلا ، أليس كذلك ؟ اننى أبكى ، فليس من الممكن أن تكون قد مللت حبيبتك كلاريس . انهم سيستقلون القطار هذا المساء ولن يعودوا إلا فى اليوم التالى ... انك ستأتى أليس كذلك ؟ ... انك لن تتركنى أبكى .»

رسالة حزينة من فؤاد حزين . ومع ذلك لم يرق قلب راوول .. فقد فكر فى الرحلة التى أخبرته بها ، وأدرك انهم ذاهبون للسفر وراء الغابة التى ذكرها بومنيان أثناء اتهامه للكونتس دى كاليو سترو ، واستقرت نيته على أن يتبع البارون وأصدقائه ، ويعرف الغابة التى يسعون إليها .

وفى الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه ، تنكر فى زى صياد، واستقل نفس القطار الذى استقله البارون ديتيج واوسكار دى بنيتو . ونزل البارون وابن عمه فى محطة صغيرة ، فتبعهما راوول وقضى الليل فى فندق صغير .

وفى صباح اليوم التالى جاء دورمون ورولفيل وروكس دشييه فى عربة ، واصطحبوا صديقيهما من القصر فتبعهم راوول .

توقفت العربة بعد نحو عشرة كيلو مترات أمام قصر يعرف باسم قصر جور ، ولما اقتربوا من القصر رأى راوول عمالاً يحفرون وينقبون فى ممرات الحديقة ومماشيها .

وكانت الساعة العاشرة صباحاً . واستقبل رئيس العمال الرجال الخمسة. واندس راوول بين العمال دون أن يلحظه أحد وأخذ يسألهم ، فعلم أن المركيز

دى رولفيل اشترى قصر جور ، وأن عملية الحفر والتنقيب بدأت صباح اليوم بالذات وأنهم يبحثون عن شيء ثمين مخبأ في القصر .

وراح راوول يسأل نفسه عما يفتشون ؟

وتمشى في الحديقة، ودار حول القصر ، ونزل الى أقبيته ، ودقت منتصف الساعة الثانية عشر دون أن يجد شيئاً، فصعد ورأى الرجال الخمسة واقفين في الحديقة. وكان يحيط بها اثنى عشر عموداً تكاد تتداعى.

وكان جود فرى ديتيج قد أخرج لفافة تبغ وفتش في جيوبه فلم يجد ثقاباً فاقترب من راوول وطلب منه شعلة .

ناوله راوول سيجارته . وبينما كان البارون يشعل سيجارته كان قد أعد خطة في رأسه ، فرفع قبعته الرخوة ، وأنزل شعره المستعار ، فما كاد البارون يراه حتى صاح يقول :

– أنت ؟ ... ومتنكر ! ما هذه الجرأة ؟ لقد انتهى كل شيء ومن المستحيل أن أزوجك ابنتي .

أمسك راوول بذراعه وقال له في لهجة قاطعة :

– رويدك . انني ما أتيت لكي أحدثك عن ابنتك . استدع اصدقاءك . سأقدم لكم خدمة جليلة عما تبحثون ؟ عن شمعدان ذى سبعة فروع ؟ انني أعرف مخبأه . سأسدى لك خدمات لن تنساها ، وبعد ذلك نتكلم في زواجي من ابنتك .

تردد جود فرى . ولكن راوول كان قد نجح الى حد بعيد في التأثير عليه فدعا أصدقاءه وقال لهم :

– انني أعرف هذا الشاب . وهو يقول انه قد يجد ...

قاطعه راوول قائلاً :

– انا لا أقول « قد » فأنا من أهل هذا البلد ، وكنت ألعب مع أطفالها وأنا صغير . وقد أرانا البواب حلقة في أحد جدران قبو هذا القصر وأنا صغير وقال لنا « يوجد مخبأ هنا ، وقد رأيت فيه آثار وتحف »

– القبو ؟ ... اننا فتشناه .

قال راوول : ولكنكم لم تفتشوه كما يجب . سأقودكم إليه .

وتقدمهم ، وهبط درجاً أفضى الى ممشى طويل وقال :

– الغرفة الثالثة على اليسار .

وأدخلهم جميعاً فى قبو مظلم منخفض ، وقال روكس دشييه :

– اننى لا أرى شيئاً .

قال راوول : إليك علبة ثقاب . لقد رأيت شمعة على السلم ، سأذهب وأحضرها إليكم .

قال ذلك وخرج ، وأغلق باب القبو وراءه بسرعة وأدار المفتاح فى القفل وصاح يقول :

– ابحثوا عن الشمعدان كما يحلو لكم . ستجدونه تحت البلاطة الأخيرة وقد التفت به خيوط العنكبوت .

وما كاد يفرغ من قوله حتى أخذ الرجال يدقون على الباب بقبضاتهم وينقضون عليه بمناكبهم وهم يصيحون فى غضب ، فى حين أسرع راوول وصعد الدرج ، واختطف كاساً من أحد العمال وجرى الى العمود التاسع وأهوى بالفأس فوقه وأحدث فيه فجوة كبيرة ، ثم أدخل يده وأخرجها بفرع نحاس يعلوه الصدأ .

كان فرع شمعدان كبير من الشمعدانات التى ترى فوق المذابح .

وكان الرجال الخمسة قد حطموا الباب ، وصعدوا الدرج مسرعين ، فلما رأوا فرع الشمعدان صاحوا يقولون :

– اللص ... اقبضوا عليه ... اللص !

ولكن راوول اندفع ورأسه الي الأمام وشق له طريقاً بين العمال ، وقفز من فوق السور الي الخارج ، وراح يجرى بين الخرائب المهجورة ، وتبعه العمال والرجال الخمسة وهم يصيحون .

وبينما هو ممعن فى الهرب رأى كنيسة فعرج اليها وأبصر سوراً فى وسطه باب فاتجه اليه . وما كاد يقترب منه حتى فتح وظهرت منه يد وسمع صوتاً يقول : تعال .

كان الصوت صوت جوزفين بلسامو .

أوصدت الكونتس الباب فى وجه مطاردية ، ثم أسرعت بالشاب الى السور المقابل ، ففتحت باباً خرجا منه الى مقبرة القرية فاجتازاها ، وخرجا الى أرض فضاء رأى راوول عربة ذات جوادين واقفة فيها ، وكان يجلس فى مكان القيادة رجل أشيب اللحية .

وقال جوزفين : أسرع الى طريق لونيراى ودودوفيل ياليونار . ألهب السائق جواديه ، وانطلقا بالعربة فى سرعة لا تنتظر منها .

أما راوول فقد جثا على ركبتيه أمام الكونتس ، وراح يبثها غرامه :

– أنت ؟ ... أنت ؟ ... ما أبدع هذا ! وما أشبهه باحدى المسرحيات . فى اللحظة التى أوشكوا أن يقبضوا على فيها ويبطشوا بى تظهرين فتنقذينى بدورك . آه . شد ما أحبك ... اننى أحبك منذ منذ سنين . منذ قرن مضى...

نعم ، ان حبى لك قديم ... عمره مائة سنة ... ولكنه لا يزال شاباً فتيا ... ما أجملك ، وما أروع سحرك وفتنتك . شد ما أحب هذه الابتسامة الغامضة التى تعلو شفتيك !

وارتجف بدنه وهتف يقول :

ـ آه ... انك لا تصدقينى ... انك تقبلين حبى ... ما أسعدنى بحبك ... ما اسعدنى !

فقالت ضاحكة : ولكننى لم أقبل شيئاً . انك تبثنى غرامك على الرغم من أنك لا تعرفنى .

– بل أعرفك ... وقد شاهدتك اثناء محاكمتك .

ارتسمت على وجهها امارات الجد وسألته قائلة :

– محاكمتى ؟ ... وهل حضرتها ؟

– نعم . حضرتها ... اننى أعرف من أنت يا ابنة كاليو سترو ... عمرك مائة سنة ... و ... وأنا أحبك .

غيرت الكونتس مجرى الحديث قائلة :

– سمعت انهم سيحفرون أرض الحديقة فذهبت لأرى ما يفعلون .

– ان ظهورك لمعجزة ... وأنا الاخر أتيت بمعجزة ... فهم يبحثون منذ اسابيع وشهور عن شمعدان ذى سبعة فروع ، وعثرت أنا عليه فى بضع دقائق ، وتحت أنوفهم .

سألته تقول فى لهفة ودهشة :

– ماذا تقول ؟ علام عثرت ؟

– على فرع من فروع الشمعدان السبعة ... ها هو .

أخذت جوزفين الفرع وقلبته بين يديها وتمتمت تقول :

– نعم . انه هو . لا شك فى ذلك . اوه ... انك لا تستطيع أن تدرى مبلغ سرورى .

قص راوول عليها ما حدث باقتضاب ، فهتفت تقول بدهشة :

– هذا غريب . ولماذا هويت على العمود التاسع دون غيره . أكان هذا صدفة واتفاقاً .؟

– كلا . ان الأحد عشر عموداً يدل شكلها على انها بنيت فى القرن السابع عشر . أما العمود الاخر ، وهو التاسع ، فقد كان شكله يدل على أنه هدم ثم بنى من جديد ، فلماذا هدم وأعيد بناوه إذا لم يكن لتخبئة شىء .

سكتت جوزفين لحظة ثم قالت :

– هذه معجزة حقاً .

فقال راوول :

– معجزة حب .

التفتت الكونتس الى الشاب وسألته قائلة :

– هل كان بومانيان معهم ؟

أجاب : كلا . وهذا من حسن حظة

– من حسن حظه ؟...

– نعم وإلا لكنت خنقته . اننى اكره هذا الرجل .

– وأنا أيضاً أكرهه .

قال وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من فرط ما يشعر به من غيرة :

– ولكنك لم تكرهيه دائماً !

أجابت فى توكيد من غير أن ترفع صوتها :

– هذا كذب وافتراء . ان بومانيان محتال ومخبول ، سقيم فى كبريائه ، وقد أراد موتى لأننى صددت حبه . كل ذلك ذكرته فى ذلك اليوم ولم يعترض... وما كان يستطيع أن يعترض .

جثا راوول على ركبته من جديد فى طفرة من الحماس وقال :

– آه . يا للكلمات الحلوة ... أنت لم تحبيه أبداً إذن ... يا لسعادتى وفرحتى ! ولكن كيف امكن ان نعتقد هذا ؟... جوزفين تحب بومانيان .

وضحك ، وصفق بيديه ، واستطرد :

– اسمعى ... ان لا أريد أن أدعوك هكذا ... ان اسم جوزفين ليس اسماً جميلاً ... هل تريدين أن أدعوك جوزين كما كان نابليون يدعوك ، وكما كانت أمك دى بوهارنية تفعل ... اتفقنا ؟... أليس كذلك ؟...

أنت جوزين ... جوزينتى .

قالت وهى تبتسم إزاء تصرفه الصبيانى :

– شىء من الاحترام أولاً ... أنا لست جوزينتك .

– شىء من الاقدام !... كيف هذا ، اننا منفردين أحدنا بجوار الآخر... وأنت بغير دفاع ، وانا ساجد أمامك فى خشوع ... انا خائف ... وارتجف واذا أعطيتنى يدك لكى أقبلها فلن أجرؤ .

* * *

٦ المطاردة

مرت العربة بعد قليل بمحطة دودفيل ، وسارت فى طريق تحفه الأشجار ، وقالت الكونتس :

- لنهبط هنا . هذه الساحة ملك لامرأة طيبة تدعى الأم فاسور ، ولها حافة تقع على مقربة هنا . اننى أجيىء الى هنا فى بعض الأحيان ، فأستريح يوماً أو يومين . سنتناول طعام الغذاء هنا ثم نرحل بعد يا ليونار .

واقتربان من الحافة ، ودخلا بهوها وسمعا صوت رجل يتحدث فى إحدى الغرف الداخلية فقالت :

- هذه هى الغرفة التى أتناول فيها طعامى كلما أتيت هنا . لاريب انها تتحدث مع بعض الفلاحين .

وما أتمت كلامها حتى فتح الباب ، وخرجت منه امرأة عجوز ما كادت تراها حتى ظهر عليها الخوف والارتباك فسألتها جوزفين فى قلق :

- ما الخبر ؟

تهالكت الأم فاسور فوق مقعد وتمتمت :

- أسرعي بالهرب ... ان البوليس يبحث عنك ، وقد فتشوا الغرفة التي توجد بها حقائبك . ان الشرطة ستأتي الآن ... إنجي بنفسك وإلا هلكت .

استولى الفزع على الكونتس عندما سمعت هذه الكلمات ثم تحولت الى راوول في توسل واستعطاف ، فشحب وجهه وأمسك بذراعها وأرغمها على الخروج .

وسارت جوزفين الى الباب ، بيد أنها ما لبثت أن ارتدت قائلة :

- الشرطة ... الشرطة ...

وقال راوول في هدوء :

- رويدك ... رويدك ... انا ضمين بكل شيء ... شرطيان في الخارج ... ورجلان من رجال البوليس في الداخل ... ان القوة لن تجدي ... أين الحقائب التي فتشوها ؟ فوق ... حسناً ... ابقي مكانك يا مدام فاسور ، وتمالكي نفسك ولا تخافي ... انني الضمين .

وأخذ بيد جوزفين وصعد معها السلم ، وتقدمها الى الغرفة التي ذكرتها له الأم فاسور . كانت الثياب والمفروشات مبعثرة على أرضيتها ، فاقترب راوول من النافذة ورأى الشرطيان يترجلان عن جوادهما ، فتحول الى جوزفين وقال :

- أسرعي ... يجب أن تستبدلي ثيابك ... البسي ثوباً آخر ، والأفضل أن يكون ثوباً أسود .

وعاد الى النافذة ، وأخذ يراقب رجال البوليس والشرطة . وعندما انتهت من استبدال ثوبها أخذ الثوب الرمادي الذي خلعته ولبسه . كان رشيق الجسم ، معتدل القامة ، وناسبه الثوب كل المناسبه وغطى ساقيه تماماً .

دخل الرجال الأربعة قلعة الحانة وسمع راوول أحدهم يسأل :

– هل أنتما واثقان من انها تقيم هنا ، عندما تأتى ؟

– كل الثقة . والدليل على ذلك وجود حقيبتها . أن على إحداهما بطاقة مكتوب عليها اسمها : مدام بللجرينى ، وهو اسم اللصة المشهورة التى نبحث عنها . انها ارتكبت بعض السرقات فى روان ودييب ، وقد فقدنا أثرها، وعلمنا أنها استقلت القطار ، غير انها اختفت ، فلم نعرف هل ذهبت الى الهافر أو فيكامب . ووقعنا أخيراً على أثرها هنا .

قال أحد الشرطيين : اننا رأينا امرأة تدخل الحانة ونحن قادمان .

وظهرت بالباب ثم ارتدت فى الحال ، كما لو أنها خشيت أن يراها أحد . وقد لاحظت انها تلبس قبعة عريضة ، ولاريب انها هى التى نبحث عنها .

وكانت قبعة جوزفين لاتزال على رأسها ، فانتزعها راوول ووضعها على رأسه فأخفت جزءا من وجهه . ثم تحول إليها وقال :

– سأعهد لك الطريق ... اخرجي بمجرد أن يبتعدوا، واذهبى الى عربتك. لا تتعجلى ، واحتفظى بهدوئك ورباطة جأشك . ومرى ليونار أن يتأهب للانطلاق بالعربة . أما أنا فسألحق بك بعد عشرين دقيقة .

واقترب من النافذة ، وتعلق بالمواسير ، وهبط الى الحديقة ، وصرخ كما لو انه رأى أشخاصاً يخافهم وراح يجرى مسرعاً .

ولفتت صرخته رجال البوليس ، فصاحوا بدورهم وركضوا وراءه ، وهم يقولون :

– إنها هى ... ثوب رمادى ، وقبعة عريضة .

خرج راوول الى الشارع العمومى ، وتوغل فى الأحراش ، وصعد اكمة ثم

هبطها ، ثم ارتقى اكمة أخرى ، وكان قد ابتعد عن مطارديه بمسافة طويلة فخلع الثوب الرمادى والقبعة العريضة وأخفاهما وسط الأعشاب ، ثم أخرج من جيبه قبعة رخوة من قبعات البحارة ووضعها على رأسه . ثم اشعل سيجارة وعاد بهدوء واضعاً يديه فى جيبه .

والتقى به رجال البوليس فى منتصف الطريق فاستوقفوه وسأله أحدهم قائلاً :

- قل لنا يا صاح ... ألم ترا مرأة ؟... امرأة ترتدى ثوباً رمادياً ؟

أجاب : رأيتها . لقد كانت تجرى . وقد قفزت من فوق هذا السور .

اندفع الرجال نحو السور فى حين أسرع هو إلى حيث العربة وقال :

- الى ايفيتو باليونار .

ومرا بالحانة ، فرأوا رجال البوليس عائدين ومعهم الثوب الرمادى والقبعة العريضة ، فضحك راوول وقال :

- لقد عثروا على ثوبك ، وهم لا يبحثون عنك الآن وانما يبحثون عن البحار الذى التقوا به فى الطريق وخدعهم . ماذا يفعلون لو عرفوا أننا فى العربة .

انطلقت العربة الى طريق آخر فالتفت راوول الى جوزفين وسألها :

- أين نذهب ؟

فردت عليه قائلة :

- إلى شاطىء السين .

وكانت أمامها مرآة صغيرة رأى فيها صورة جوزفين . وما كاد يراها حتى استولت عليه دهشة كبيرة وتملكه ذهول عظيم ، فقد تغيرت ملامحها

وعلت وجهها الغضون والتجعدات ، وارتسمت عليه أمارات الحزن والأسى ، وفتحت جوزفين حقيبة يدها ، أخرجت منها مرآة صغيرة ذات اطار ذهبى سكبت عليها نقطتين من سائل فى قنينة صغيرة ثم مسحتها بقطعة من الحرير ونظرت إليها .

مرت عشر دقائق ، ثم خمس أخرى ، فى الصمت والجهد الظاهر لنظرة تركزت فيها كل ارادتها وعزيمتها . وكانت الابتسامة هى التى ظهرت اولاً ، فى تردد وحياء ، كشعاع شمس الشتاء . ثم غدت اكثر جرأة ، كشفت عن نفسها بنقاط صغيرة انبثقت أمام عين راوول المذهولتين . وازداد ارتفاع ثنية الفم ، وتشبعت البشرة باللون وبدأ كأن اللحم يزداد قوة ، واستعادت الوجنتان كقاطعيهما هى والذقن ، وتألق كل وجه جوزفين بلسامو بالجمال والرقة .

وتمت المعجزة .

قال راوول يحدث نفسه :

- معجزة ؟ ... كلا ، أو بالأخرى معجزة إرادة ونية صادقة صلبة لا ترضى بالفشل وتعيد النظام حيث الاختلال والارتخاء . أما الباقى ... المرآة والقنينة والقطرات السحرية فما هو إلا تظاهر وخداع .

وأخذ المرآة ، وكانت قد وضعتها بجوارها وفحصها . كان من الواضح أنها هى المرآة التى تكلم عنها البارون ديتيج والتى قال ان الكونتس دى كاليو سترو استخدمتها أمام الملكة أوجينى . وكانت جوانبها منقوشة وعلى قبضتها تاج الكونتيسة وتاريخ ١٧٨٣ ، والرباعية التى تتحدث عن الكنز . وأحس راوول بحاجته الى أن يجرحها فقال :

- لقد أورثك أبوك مرآة ثمينة ، فبفضل هذا الطلسم تستردين نشاطك

قالت : الواقع اننى فقدت عقلى ، ونادراً ما يحدث هذا .. وقد سبق أن تمالكت نفسى فى ظروف أشد خطراً من هذه ..

أحس راوول ان تلك المرأة التى كانت شديدة القرب منه قبل ذلك بساعتين، والتى قدم لها حبه بمرح وسرور تبتعد عنه فجأة الى حد أنها أصبحت غريبة عنه . لم يعد بينهما أى اتصال ، فان روحاً غامضة تحيط بها فى ظلمات كثيفة الى حد أن ما يراه منها الآن يختلف جداً عما تصوره.

روح لصة ... روح خفية وقلقة ... عدوة النهار والوضوح ... فهل هذا ممكن ؟ أيمكن أن يكون هذا الوجه الصافى لوجه عذراء جاهلة ، وأن تكون تلك النظرة الصافية كماء النبع ، أيمكن أن يكون كل ذلك مظهراً خادعاً ؟

أحس بخيبه أمل كبيرة وهو يجتاز مدينة إيفتو الصغيرة ، ولم يعد يفكر إلا فى الهرب ، ولكنه لم يستطيع أن يتخذ القرار ، الأمر الذى ضاعف غضبه . وعادت إليه ذكرى كلاريس ديتيج ، وتذكر لمجرد لحظة ، المخلوقة الوديعة التى استسلمت له طواعية .

ولكن جوزفين لم تتخل عن فريستها ، فرغم ما رآه من ذبولها ، ورغم ما طرأ عليها من تغيير ، فقد تصاعدت منها رائحة عطرة مسكرة ، ولامسته ثيابها . وكان فى استطاعته أن يأخذ يدها الرقيقة ويطبع عليها قبلة . كانت بالنسبة له كل الحب وكل الرغبة وكل الشهوة وكل غموض المرأة الساحرة الفاتنة . واضمحلت من جديد ذكرى كلاريس ديتيج وتلاشت ، تمتم فى صوت خافت لم تسمعه : جوزين ... جوزين .

ولكن ما الجدوى من البوح بحبه وغرامه . هل يمكنها أن تعيد إليه الثقة الضائعة ، وأن يجد فى عينيها السحر الذى لم يعد له وجود .

وقفت العربة بعد قليل أمام شاطىء نهر السين ، فهبطت جوزفين وتحولت الى راوول وقالت :

- الوداع يا راوول ... ان محطة ماليرية قريبة .

فسألها قائلاً : وأنت ؟

- اوه ، ان بيتى قريب .

- ولكننى لا أرى بيوتا .

- اننى أقيم فى هذا الزورق الذى تراه هناك .

- سأرافقك .

كان هناك طريق ضيق يقطع المرج وسط البوص ، سلكته الكونتس ، وتبعها راوول ، وكان الزورق في الخلفية ، يخيفه ستار من الأشجار . ولم يكن باستطاعته أحد أن يراهما ويسمعهما . كانا وحدهما تحت السماء العريضة الزرقاء . وهناك ، مرت بهما بضع دقائق ، من تلك الدقائق التى تظل ذكراها فى الذهن طوال العمر . وقالت جوزفين بلسامو للمرة الثانية :

- الوداع ... الوداع .

وتردد أمام اليد المبسوطة للوداع الأخير فقالت :

- ألا تريد أن تضغط على يدى .

قال : نعم ، نعم . ولكن لماذا نفترق .

- لأنه لم يعد لدينا ما يقال .

- هذا صحيح ... ومع ذلك فنحن لم نقل شيئاً .

وانتهى بأن أخذ اليد الباردة الرقيقة بين يديه وقال :

– ان كلمات هؤلاء الرجال ... واتهاماتهم فى الحانة ... أهى إذن الحقيقة؟

كان يتمنى تفسيراً ولو كاذباً ولكنها قالت :

– تريد ان تقول اننى لصة ، أليس كذلك ؟ ... لصة .

– نعم .

ابتسمت وقالت : وأنت يا صغيرى ؟ ... ماذا تكون ؟ ... إذ يجب أن تكشف لى حقيقتك أنت أيضاً . من أنت ؟

– اسمى راوول داندريزى .

– انت تمزح . أسمك أرسين لوبين . وابوك اسمه تيوفراست لوبين ، وكان يعلم الملاكمة والجمباز ، ويزاول مهنة تدر ربحاً أكثر وهى مهنة اللصوصية . وقد اعتقل فى الولايات المتحدة وحكم عليه بالسجن ومات فيه . واستردت أمك اسم العائلة وعاشت فقيرة عند ابن عم بعيد لها هو الدوق دى درو سوبيز . وذات يوم اكتشفت الدوقة سرقة حلية نفيسة ، لم تكن غير عقد الملكة مارى انطوانيت (ورغم كل الأبحاث لم يعرف أحد اللص الذى قام بهذه السرقة) بذكاء كبير وبراحة شيطانية . أما أنا فاعرفه ، فهو أنت . و كنت عندئذ فى السادسة من عمرك

أصغى راوول وهو ممتقع اللون ومتوتر الفكين وقال :

– كانت أمى تعيسة ومهانة وأردت إسعادها .

– بالسرقة ؟

– كنت فى السادسة من عمرى .

– وانت الآن فى العشرين ، وقد ماتت أمك ، وأنت قوى ، ولك إرادة

كالحديد ، فكيف تعيش ؟

- انني اشتغل .

- نعم ، فى جيوب الآخرين .

ولم تترك له الوقت للاحتجاج واستطردت :

- انني لا أقول شيئاً يا راوول . أنني أعرف حياتك بأدق تفاصيلها ، واستطيع أن أسرد عليك أحداثاً وقعت هذه السنة وأخرى اكثر قدماً ، لأنني أتتبع آثارك منذ (وقت طويل . وكل ما سأقوله لك لن يكون أفضل مما سمعته منذ) لحظات فى الحانة ... رجال بوليس ... وشرطة ... ومطاردات. انك مررت بكل هذا أنت أيضاً فلا داعى للوم والتجريح ... وأقول لك للمرة الأخيرة : وداعاً يا راوول .

تمتم : كلا . كلا .

- بل لابد من ذلك يا صغيرى ، فلن ينالك منى غير الآلام والأحزان . لا تحاول أن تربط حياتك بحياتي فأنت طموح ونشيط ولك مزايا تستطيع بها أن تشق طريقك وحدك .

وأردفت تقول فى صوت أشد خفوتاً :

- والطريق الذى أسلكه ليس طريق الخير .

- لماذا تسلكينه اذن يا جوزفينى ؟ ... هذا هو ما يخيفني بالذات .

- لقد فات الأوان .

- وفات الأوان بالنسبة لى أنا أيضاً .

- كلا . أنت مازلت شاباً فانج بنفسك ، وأفلت من القدر الذى يهددك .

- وأنت يا جوزين ؟

– أنا ؟ ... هذه حياتى .

– حياة بشعة ... بغيضة

– إذا كان الأمر كذلك فلماذا تريد أن تربط حياتى بحياتك ؟

– لأننى أحبك يا جوزين .

– اليوم . ولكن ماذا يكون الأمر غداً ؟ ... أطع الأمر الذى نصحتك به... اننى قلت لك منذ أول لقاء ... لا تحاول ان ترانى ثانية ... فامضى .

قال راوول فى بطء :

– نعم ، نعم . أنت على حق . ولكن من الفظاعة التفكير فى أن كل شىء سينتهى بيننا حتى قبل أن أجد الوقت للرجاء والأمل ... وأنك لن تتذكرينى .

– ان المرء لا ينسى من أنقذه مرتين .

– هذا صحيح ... ولكن ستنسين اننى أحبك .

هزت رأسها وقالت :

– كلا . لن أنسى ذلك . ان حماسك وإخلاصك وبساطتك وأشياء أخرى لا أتبينها بعد ... كل ذلك يؤثر فى كل التأثير .

واحتفظ كل منهما بيد الآخر فى يده ، ولم تفترق عيناهما و قالت له فى رفق :

– عند الفراق الأبدى يجب إعادة ما أخذه كل منا للآخر ، فاعد الى صورتى يا راوول .

– كلا .

قالت فى ابتسامة أثملته :

– سأكون إذن أكثر أمانة ، سأعيد إليك باخلاص ما اعطيتنى اياه .

– وما هو يا جوزين

– فى الليلة الأولى فى المخزن ، بينما كنت نائمة انحنيت فوقى يا راوول وأحسست بشفتيك على شفتي . وعقدت يديها خلف عنقه وجذبت رأسه إليها والتقت شفاههما ، فقال فى وجد ووله :

– آه يا جوزين ! افعلى ما تريدين ... انني أحبك ... أحبك .

وساروا على شاطىء السين . وتراقص البوص أمامهما وتلاعب الهواء بثيابها ومضيا نحو السعادة ، دون أية أفكار أخرى ، إلا تلك التى تثير بلبلة العشاق الذين تتشابك أيديهم . وقالت :

– كلمة أخيرة يا راوول ... أشعر بأننى سأكون عنيفة ومتحيزة ... أليس هناك نساء غيرى فى حياتك ؟

– كلا .

قالت آسفة : آه ... أتكذب هكذا حالاً ؟

– اكذب ؟

– وكلاريس ديتيج ؟ نعم . كنتما تتواعدان فى الحقول . وقد شوهدتما .

احتد وقال : هذه قصة قديمة . غزل لا أهمية له .

– هل تقسم ؟

– أقسم .

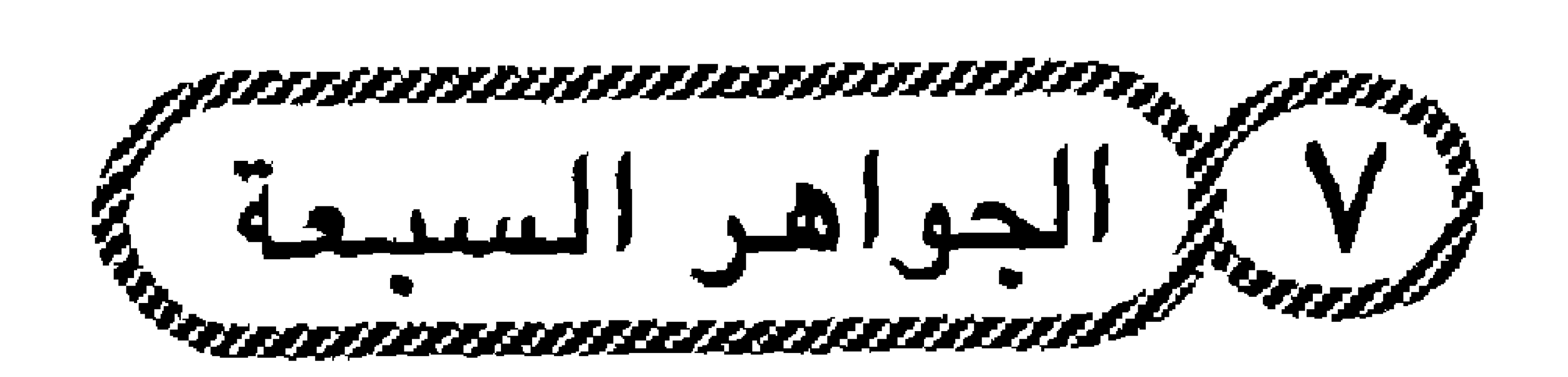
قالت فى صوت قاتم :

– هذا أفضل ... أفضل من أجلها . وعليها أن لا تتسلل بيننا ، والا ...

جذبها إليه قائلاً :

- اننى لا أحب غيرك يا جوزفين ... لم أحب أحداً أبداً غيرك ... إن حياتى تبدأ اليوم

* * *



٧ الجواهر السبعة

قضى راوول شهراً مع عشيقته على ظهر الزورق ... شهراً جميلاً نعم فيه بسعادة غامرة وصل فيه على كنوز من البهجة والفرح ، فكانا يخرجان كل يوم للنزهة فى غابة بروتون وخرائب جوميج ودير القديس جورج وهو'يطوقها بذراعه .

وأشرقت أسارير جوزفين وتألقت بشرتها ، وخيل إليها انها تعيش فى حلم لذيذ . كان كل يوم يزيدها قرباً من عشيقها ، فأحبته حباً ملك كل عواطفها وعرفت فيه معنى الهناء والشقاء .

وجاء ليونار بالعربة فى نهاية الأسبوع الثالث ، فركبتها الكونتس ، ولم تعد إلا فى المساء ، وأنزل ليونار فى الزورق صناديق صغيرة ملفوفة فى أغطية من القماش ، وفتح باباً فى سطح الزروق لم يكن راوول قد لحظه من قبل ، وأنزلها منه .

وفى منتصف الليل فتح راوول ذلك الباب وفحص الصناديق فوجد بداخلها تحفاً فنية نفيسة وثياباً فاخرة مطرزة بالدانتلا .

وفى اليوم التالى ركبت العربة أيضاً . وكان راوول قد تملكه الملل

فاستأجر دراجه وراح يتجول بها فى القرى المجاورة . فلما بلغ مدخل أول قرية رأى جمعاً من الناس أمام بيت فاقترب ، وسأل عن سبب تجمعهم ، فقيل له أن بالبيت مزاداً علنياً .

دار راوول حول القصر فرأى سلماً خشبياً على الأرض ، فى الناحية الخلفية وبدون أن يدرى ما يفعل اسنده الى الجدار وصعد الى النافذة ووثب منها إلى الداخل . وما كاد يفعل حتى سمع صرخة خافتة فالتفت ورأى امامه جوزفين بلسامو ، وكانت قد تغلبت على خوفها ، فقالت :

– أوه ...أهذا أنت ياراوول ؟... اننى أشاهد مجموعة من الكتب المجلدة

لزم راوول الصمت ، وفحص الكتب وغافل الكونتس ودس فى جيبه ثلاث ماسات من إحدى الفترينات فى حين غافلته الكونتس وأخفت فى جيبها بضع ميداليات أثرية من فترينة أخرى .

وهبطا السلم واندسا بين الموجودين دون أن يفطن إليهما أحد . وكانت العربة تنتظر على مسافة ثلاثمائة متر فركباها .

ومنذ ذلك اليوم أخذا يعملان معا ، فكان فى كل مغامرة جديدة يكتشف فى نفسه مواهب جديدة مختفية لم يكن يعرفها . وكان فى بعض الأحيان يلعق لسانه فى غبطة وابتهاج فتنظر إليه فترى ساعة ثمينة أو دبوساً جديداً مشبوكاً فى رباط رقبتة . كل ذلك وهو محتفظ بهدوئه ورباطة جأشه .

وأدرك راوول عندئذ حقيقة حياة عشيقته ، وتأكد أنها على رأس عصابة قوية محكمة التدبير فتلقى أوامرها عن طريق ليونار . وتأكد انها ، هى الأخرى ، تسعى وراء لغز الشمعدان ذى السبعة فروع .

وشخصان هذه حقيقتهما وطريقة معيشتها سرعان ما يتغير حبهما ويتحول مع الأيام الى عداء و بغضاء وغيرة وكراهية .

وانتهى غرامهما الممتع فى يوم التقيا فيه ببومانيان والبارون ديتيج وبنيتو، وشاهداهما يدخلان مسرح الفارتيته

ودهش راوول لذلك ، لاسيما أن المسرح من مسارح الدرجة الثانية ، وأراد أن يتبعهم ولكن جوزفين ترددت بيد أنه أرغمها على الدخول معه وقد أحنقه هذا التردد .

وجلسا فى بنوار مظلم . أما بومانيان وصديقاه فقد جلسوا فى بنوار أمامى فلم يستطيع راوول أن يراهم .

وكان النقاد قد قابلوا المسرحية التى تمثل بتهمكم شديد وسخرية لاذعة وأجمعوا على تفاهتها فازداد عجب راوول عندئذ وأخذ يتساءل عن سبب حضور الأصدقاء الثلاثة إلى ذلك المسرح ؟

وألقى راوول هذا السؤال على جوزفين بلسمامو فهزت كتفيها ولمْ يجبه ، فأدرك انها لا تريد اطلاعه على شئ ولا تريد مساعدتى فأحنقه ذلك وقال بلهجة الحزم :

– لا بأس . فليتبع كل منا طريقه ، وسنرى من منا سيكون الرابح .

ورفعت الستار فى هذه اللحظة وظهرت راقصة تلبس ثياباً تتدلى منها جواهر زائفة كانت تتموج على جسدها وهى ترقص . وكانت تضع حول رأسها شريطاً موشى بالأحجار الكريمة الامعه المتلألئة فكان يخيل للرائى ان الأنوار فوق جبهتها ورأسها

وانتهت الراقصة من دورها وهبطت الستار ثم رفعت وقدم فصلان من المسرحية ثم أضيئت الانوار للاستراحة .

نهض راوول من مكانه عندئذ ، وذهب إلى البنوار الأمــامى الذى رأى الأصدقاء الثلاثة يدخلان فيه . ولما اقترب منه وجد الباب مواربا فدفعه الى

الداخل فى هدوء وأطل منه بحذر ولكنه لم يجد أحداً . ولما سأل عنهم قيل له أنهم غادروا المسرح منذ نصف ساعة .

وعاد إلى صديقته ، ورفعت الستار فى هذه اللحظة وظهرت الراقصة مرة أخرى ، فنظر راوول الى الشريط الموشى بالأحجار ، وما كاد يفعل حتى بدا عليه الاهتمام ، فقد كان الشريط من الذهب به سبع جواهر كبيرة مختلفة الألوان ، فتمتم يقول بين أسنانه :

– سبع جواهر ... هذا هو سبب قدومهم !

واستعلم عن الراقصة وعرف أن اسمها بريجيت روسلان ، وانها تقيم هي وخادمة عجوز تدعى فالنتين في بيت في ضاحية مونتمارتر .

غادر راوول الزورق فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ومضى الى مونمارتر ، وسلك طريقاً غير ممهد حتى بلغ بيت بريجيت روسلان ، وكان ملاصقاً لبيت آخر فيه طابق شاغر من السكان . وراح يسير جيئة وذهاباً كما لو كان ينتظر أحداً ثم غافل البوابة ودخل البيت وصعد الى الطابق الشاغر ، وتحقق من أن أحد لا يراه ثم قفز من النافذة الى سطح البيت الذى تقيم فيه بريجيت .

رأى فتحه صغيرة فى السطح تؤدى الى غرفة تستعمل مخزناً للأشياء القديمة المستهلكة فقفز منها الى الداخل . وكان الباب موصداً ولكنه وجد كوة فى أرض الغرفة تطل على بسطة السلم فحاول أن يفتحها وفيما هو يفعل سمع فى الغرفة التى تحته امرأتان تتحدثان فأدرك أنهما بريجيت والخادمة فالنتين . وساءه ذلك لأنه كان يظن انهما فى الخارج ، وكان يريد أن يفتش البيت دون أن يزعجه أحد ، ورأى أن ينتظر مكانه الى أن يخلو له الجو . ولكن ما أن مرت به بضع لحظات حتى سمع جرس الباب يدق

وبريجيت تصيح للخادمة قائلة :

– هذا غريب اننى لا أنتظر أحداً اليوم ... اذهبى يا فالنتين وانظرى من الطارق .

وسمع الخادمة تهبط ثم تعود بعد هنيهة وتقول :

– انه سكرتير مدير المسرح ... وقد أعطانى رسالة لك ... وأدخلته الى الصالون .

فضت بريجيت الرسالة وقرأت بصوت مرتفع :

« عزيزتى الآنسه روسلان ، أرجو أن تعطى جواهرك لسكرتيرى اننى بحاجة إليها لعمل نسخة منها ، وستجدينها عند عودتك إلى المسرح ..

قال راوول : آه ... الجواهر ... هل يهتم المدير بهذا اللغز أيضاً ؟!

وهل ستعطيهما بريجيت لهذا السكرتير . وسمعها تقول :

– ولكننى لا أستطيع ، فقد وعدت بأن أعطيها لشخص آخر .

ليقل للمدير اننى آسفة واننى سأشرح له السبب هذا المساء .

خرجت فالنتين . وجلست بريجيت أمام البيانو وأخذت تعزف .

ولم يلبث راوول أن سمع شخصاً يصعد السلم بعد لحظات ... وفجأة أمسكت الفتاه عن العزف وسمعها تسأل فى قلق :

– من أنت ؟ ... آه ، السكرتير ... ولكن ماذا تريد ياسيدى ؟

فرد الرجل قائلاً :

– لقد كلفنى المدير باحضار السبع جواهر ولذلك ترينى مضطراً إلى العودة إليك ...

– ولكننى رددت عليك ... ألم تقل لك الخادمة ... لماذا لم تصعد معك ... فالنتين ... فالنتين

فلم تسمع أى رد فصاحت تقول فى خوف

– فالنتين ... آه ... انك تخيفنى يا سيدى ... أن عينيك ...

سمع راوول الباب يصطفق ، ثم مقعداً يقع أعقبه صوت شجار وعراك ، وبريجيت تصيح طالبة النجدة .

عند ذلك عالج غطاء الكوة وبذل جهده حتى فتحه وتدلى منها الى البسطة ، فوجد أمامه ثلاثة أبواب كلها موصدة .

اندفع الى واحد منها واقتحمه فوجد نفسه فى غرفة أثاثها مقلوب وكل ما فيها مبعثر ، فأسرع الى الغرفة الداخلية ، ورأى رجلاً منحنياً فوق إمرأة طريحة فوق البساط وهو يخنقها بكلتا يديه . وكانت الفتاه تصيح فى صوت متقطع تكاد الروح تفارق صاحبته .

فهجم على الرجل ورفعه عن جسد فريسته ، فتدحرج الاثنان على أرض الغرفة ، واصطدمت رأس راوول بالموقد فكاد يفقد رشده .

كان راوول شاباً فى العشرين من عمره ، نحيف الجسم فى حين كان خصمه يفوقة قوة . ومع ذلك تغلب راوول عليه وطرحه أرضاً فى أقل من دقيقة ، ثم أسرع الى الفتاه المسكينة وحملها بين ذراعيه ووضعها فوق الفراش .

كانت قد فقدت رشدها ، فانحنى فوقها ، وفحص عنقها ، فوجدها لاتزال على قيد الحياة فأسرع الى النافذة وفتحها على مصراعيها ، ثم تحول الى الرجل ، وقلبه على ظهره ، وما كاد يفعل حتى ارتد إلى الخلف مذهولاً ، وقال وهو لا يصدق عينيه : ليونار ... ليونار .

وقف راوول هنيهة وهو مشدوه ، وأخيراً جر الرجل الى الغرفة المجاورة وشد وثاقة الى قاعدة مقعد مستطيل ، ثم هبط السلم إلى الطابق الأرضى ، وبحث عن الخادمة فوجدها مقيدة ومكممة كما كان يتوقع ، ففك قيودها ورفع الكمامة عن فمها وقال لها :

أنا مخبر . وقد انقذت سيدتك فامضى إليها واعتنى بها . أما أنا فسأهتم بذلك الرجل وأرى ان كان له شركاء .

ووقف يفكر هنيهة وهو محتفظ بهدوئه وعدم اكتراثه اللذين عرف بهما فيما بعد . وأخيراً ذهب الى الباب العمومى وفتحه قليلاً ، وأطل منه فى حذر، فرأى عربة الكونتس واقفة على مقربة منه

أغلق الباب عندئذ وقد استوثق من شكوكه وعقد العزم على أن يمضى فى هذه المسألة الى النهاية مهما حدث .

وكان قد سقطت من ليونار أثناء تدحرجه صفارة خشبية كبيرة ، وعلى الرغم من الخطر الذى كان يستهدف له فقد سارع وأمسكها كما لوأن لها قيمة كبيرة . وقد استغرب لذلك وتساءل لماذا فعل ليونار ذلك .

خطر أن ليونار ربما يستعملها لاخطار شريكته . فاقترب من النافذة وأطلق صفيراً ثم ارتد وراء الستار وانتظر . وماهى إلا هنيهة حتى فتح الباب العمومى ودخلت جوزفين .

دخلت بهدوء غريب كأن ليونار لم يرتكب شيئاً ، وكأنها داخلة لزيارة صديقة لها .

وأسرع راوول فنادى فالنتين وقال لها :

– لا تنطقى بكلمة واحدة . هناك مؤمراة تدبر ضد بريجيت روسلان ، وأريد أن اكشف عنها ، فالزمى الصمت .

وأغلق باب الغرفة التى فيها بريجيت وأسرع الى الغرفة المجاورة ، وكانت جوزفين قد بلغت البسطة الأولى فوقع نظرها عليه ، كما رأت ليونار ، مشدود الوثاق ، داخل الغرفة .

ورغم ذلك فقد ظلت محتفظة بهدوئها ، ولم تظهر عليها أية امارات تدل على القلق والاضطراب ، بل وقفت تفكر وتسائل نفسها كيف جاء راوول الى هذا البيت وماذا يفعل ومن الذى قيد ليونار ؟

وأخيراً رفعت حجابها الرقيق وسألته قائلة :

– لماذا تنتظر الى هكذا يا راوول .

سكت سكتة قصيرة ثم قال وهو ينظر إليها ملياً :

– قتلت بريجيت روسلان .

– قتلت ؟

– نعم ... قتلها ليونار .

بان على وجهها دلائل الذعر والاضطراب ، وهمست تقول :

– ليونار ؟ ... أهذا ممكن ؟

– نعم . ليونار ... وقد فاجأته وهو يخنقها .

زاد اضطرابها وتهالكت على المقعد قائلة :

– آه ... الشقى !... الشقى !... أهذا ممكن ؟

واردفت تقول فى صوت أشد خفوتا :

– قتلها ... قتلها ... أهذا ممكن ... لقد أقسم لى انه لن يقتل ابداً ... آه... لا يمكننى أن أصدق . أواه ... راوول ... راول ...

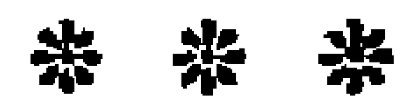
لم يد ر راوول هل هى صادقة أم انها تفتعل الحزن والجزع !

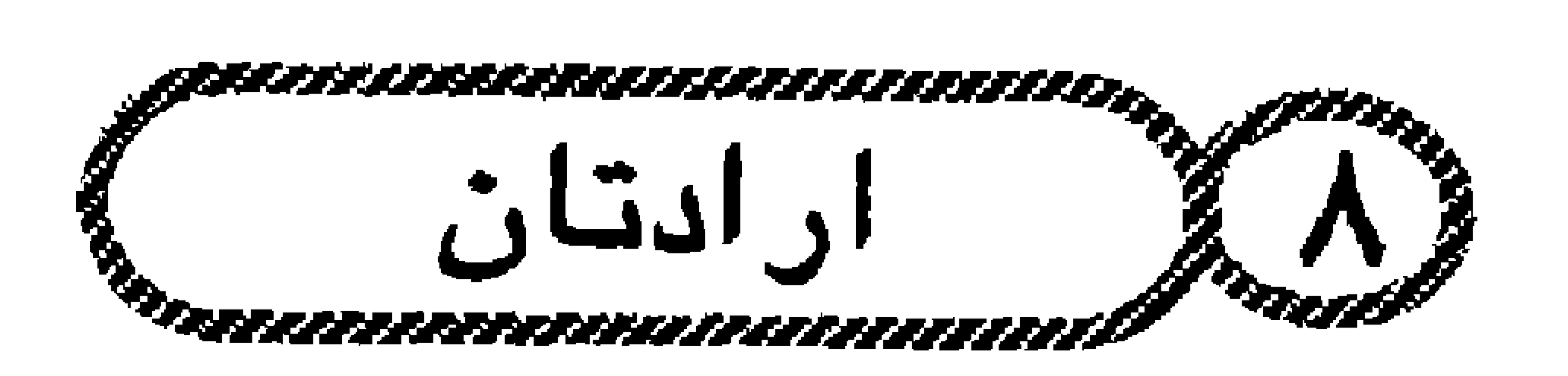
أما هى فقد رفعت رأسها وحدقت فى راوول ثم أمسكت به قائلة :

– راوول ... راوول ... لماذا تنتظر هكذا؟... كلا ، كلا ...انك لا تتهمنى ، أليس كـــذلك ؟ ... اواه ... ان هـذا فـظيـع ... هل تـصـــدق أننى أمـرتـه أن يقتلها... كلا . كلا يا راوول .

فدفـعـها عنه بوحشـيـة وأخذ يسـير جيئة وذهاباً ثم عـاد إليـها وأمسك بكتفيها وقال :

– اصغى الى جيداً يا جوزين . إذا لم تتذكر لى كل ما يتعلق بهذه المسألة قبل مضى نصف ساعة فانى أقسم لك باننى سأعاملك كما يعامل المرء عدواً لدوداً له . فـأبعدك عن هـذا البيت وأسلم ليونار للبوليس وأخبرهم بالجريمة التى أرتكبها في شـخص بريجيت روسلان وللبوليس أن يتصرف عندئذ كما يشاء .





٨ ارادتان

وهكذا أعلن اوول الحرب على جوزفين بلسامو . ودهشت هذه الأخيرة ، فما كانت تتوقع منه أن ينقلب عليها هذا الانقلاب الفجائى الفظيع . وعاد راوول فقال :

– تكلمى ... اننى لا أريد سفك دماء ... لا بأس بالسرقة ، ولابأس بالسطو ... أما القتل فلا ... وألف لا .

ظهرت دلائل القلق على جوزفين بلسامو وأخيراً تمتمت قائلة :

– لا أستطيع ... لا أريد أن ...

فضحك وقال : أتخافين على ... ها ... ها اطمئنى يا جوزين ، فانا لا أخشى بومانيان وأنما أخشى عدواً آخر أشد منه خطراً ... وهذا العدو هو أنت ... تكلمى .

ولما رأت جوزفين أنه مصر على أن تتكلم قالت :

– حسناً . ماذا تريد أن تعرف ؟

– كل شيء . أريد أن أعرف سبب قدومك هنا ... وأن أعرف لماذا قتل

هذا الشقى بريجيت روسلان .

أجابته قائلة : لقد فعل ذلك ليأخذ منها الجواهر السبع .

– وهل هذا سبب يدعوه إلى قتلها ؟

– انه لم يكن يقصد قتلها . ولكنه أراد الحصول على الجواهر السبع قبل غيره لأن بومانيان يسعى لكى يأخذها هو الآخر .

– بومانيان !... وهل تستطعين التغلب عليه وحدك ؟... أترين يا جوزين ؟... يجب أن تقبلى مساعدتى وأن نتضامن سوياً ونتعاون على بومانيان ... نعم ، يجب أن نتعاون معا إذا كنت تريدين الفوز والانتصار عليه ، فأنا وحدى يمكننى أن أقاومه ، وبواسطتى تنجحين فى مسعاك .

همست جوزين تقول أمام هذه الارادة القوية :

– حسناً . سأذكر لك كل شىء .

ومع ذلك ترددت ، بيد أنها جلست أخيراً وبدأت تقول :

– سأذكرلك كل شىء كما تريد ... منذ اثنتين وعشرين سنة ، أى قبل نشوب الحرب بين فرنسا وبروسيا ببضعة شهور ، فاجأت عاصفة هو جاء الكردينال دى بونشوز ، مطران مدينة روان وعضو مجلس الشيوخ ببلدة كو، وهو فى طريقه فاضطرته الى الاحتماء بقصر جور ، وكان يقيم فيه وقتئذ شيخ طاعن فى السن يشرف على الموت يدعى الشيفالية ديزوب . وقد تناول الكردينال العشاء هو والشيفالية وبينما كان الخدم يعدون غرفة الكاردينال قص عليه الشيفاليه هذه الحكاية التى سأقولها لك . وها هى ، فاصغ الى :

« قضيت يا سيدى الكردينال سنواتى الأولى بين الثورة فى عهد الارهاب، وكنت اذ ذاك يتيماً فى السنة الثانية عشرة من عمرى ، فكنت

أرافق عمتى الى السجن حيث توزع الخبز وتواسى المرضى . وكان فى السجن أناس من جميع الطبقات ، كانوا يحاكمون ويعدمون فى اليوم التالى لمحاكمتهم . وأثناء ترددى على السجن تصاحبت مع رجل فاضل لم أعرف اسمه ، ولم أعرف لماذا سجن . وأخذت أتردد عليه كل يوم إلى أن أمن لى ووثق بى حتى مساء اليوم الذى حوكم فيه فقال لى :

– اننى سأشنق غداً يا بنى ، وسأموت دون أن يعرف أحداً من أنا ، وهذا عين ما أردت . واننى أرجو أن تستمع إلى كما يستمع رجل لآخر غيره. أننى سأكلفك بمهمة كبرى ستدرك ماهيتهاوستعرف كيف تحافظ عليها ، وانا واثق انك لن تذكرها لأحد .

واستطرد الشيفالية ديزوب فى قصته فقال لى :

– وأخبرنى بعد ذلك أنه كاهن ، وأنه أودعت لديه ثروة كبيرة طائلة من الأحجار الكريمة والمجوهرات النفيسة ، أخفاها فى مخبأ غريب ببلدة كو ، فى مكان معرض لأنظار الجميع في جوف صخرة ضخمة كانت ولاتزال تستعمل كعلامة لحدود بعض الأ ملاك والحقول والأراضى والمراعى ، وان تلك الصخرة غائرة فى الأرض تحوطها الاعشاب والأشواك ، فى آخرها تجويفتان عاديتان تغطيهماالحشائش ، فكان كلما أودعت إليه جوهرة ذهب بها إلى هذه الصخرة وأزال ما حولها من تراب وأودعها بدوره ذلك المخبأ الأمين . ولما أن امتلأت تلك الصخرة ولم يقع اختيار الرهبان على مكان آخر، نقل الكاهن الجواهر فى صندوق خشبى دفنه بنفسه فى أسفل الصخرة قبل إلقاء القبض عليه ببضعة أيام .

« وقد ذكر لى مكان تلك الصخرة ، وذكر لى كذلك عبارة تدل على مكانها.

« وقد وعدته ، نزولاً على إرادته أن أذهب بعد عشرين سنة ، أى بعد أن يسود الهدوء ويستتب النظام إلى تلك الصخرة وأتحقق من وجود الجواهر المخبأة فيها ، ثم أحضر مع ذلك القداس السنوى الذى يقام احتفالاً بعيد الميلاد فى كنيسة جور .

« وقال لى اننى سأرى فى إحدى هذه الحفلات ثياباً سوداء بجانب المذبح واننى اذا ذكرت اسمى لهذا الرجل فسيذهب الى شمعدان ذى سبعة فروع بيضاء فى أيام الحفلات ، فاذا فعل ذلك أطلعه على العبارة التى تدل على الصخرة ثم أمضى به إلى مكانها .

« وقد أقسمت له اننى سأقوم بهذه المهمة ، وسأحتفظ بسرها فى قرارة نفسى فلا اذكره لأحد . وأعدم الكاهن فى صباح اليوم التالى ، وعلى الرغم من اننى كنت لا أزل غلاماً فى ذلك الوقت فقد حافظت على قسمى ، ولم أبح لأحد بهذا السر . ولما أن بلغت الخامسة والثلاثين من عمرى ذهبت الى الصخرة وتحققت من وجودها ، ثم ذهبت فى يوم القداس الى كنيسة جور ، فرأيت الشمعدان ذى السبعة فروع ، ولكننى لم أر أحداً يرتدى ثياباً سوداء بجوار المذبح .

وذهبت فى العام التالى الى الكنيسة وفى العام الذى يليه ، غير أنى لم أر أحداً . وهكذا ، منذ خمسة وأربعين سنة وأنا انتظر ، ولكن لم يحضر الرجل، ولم تتحرك الصخرة من مكانها ، ولا أدرى ماذا أفعل ولا إلى من أتجه . هل أطلع الحكومة على هذا السر أم أطلب مقابلة الملك وأذكرله كل شىء . وأخيراً لزمت الصمت وإن كان ضميرى لم يطاوعنى ، واستولت على الوساوس ، وأخشى أن أموت ويدفن هذا السر معى .

« بيد أن وساوسى تبددت الليلة عندما رأيتك ، فأنت بصفتك مطراناً تمثل

الكنيسة ، وبصفتك عضواً في مجلس الشيوخ تمثل فرنسا ، ولا أخشى شيئاً باعترافي لك بهذا السر ، فابحث يا سيدى ، وتحر ، فإذا ما قلت لى لمن ينبغي أن أفضي بسر العبارة ذكرته له دون تردد .

أصغى الكردينال دى بونشوز إلى تلك القصة فى اهتمام كبير ، ولكن لم تلبث أمارات عدم التصديق أن لاحت على وجهه . فلما رأى الشيفالية ديزوب ذلك خرج وعاد بعد ذلك هنيهة ومعه صندوق خشبى ، وقال له :

– هذا هو الصندوق الخشبى الذى كان مدفوناً تحت الصخرة ... لقد وجدته في نفس المكان الذى ذكره لى الكاهن ، فرأيت من الحكمة أن أحتفظ به عندى . أعرض الجواهر التى فيه على الخبراء وسلهم أن يقدروا لك قيمتها ، فاذا ما فعلوا فسوف تقتنع بصدق قصتى .

« فلما رأى الكردينال الصندوق والجواهر التى فيه وسمع إلحاح الشيفالية وعده بالاهتمام بهذه المسألة . غير أن الاحداث التى وقعت بعد ذلك حالت بينه وبين الوفاء بذلك الوعد ، فقد نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ، وأعقبها كثير من الكوارث فانهارت الملكية ودخل الألمان البلاد الفرنسية .

ولما تقدم الألمان فى زحفهم إلى مدينة روان أراد الكردينال دى بو نشوز أن يرسل الى انجلترا بعض الأوراق والمستندات الهامة ، ورأى ان ينتهز الفرصة ويرسل معها الصندوق الخشبى الذى يحتوى على الجواهر . ففى مساء اليوم الرابع من شهر ديسمبر ، أى قبل دخول الألمان البلدة بيوم واحد غادر خادمه وموضع ثقته جوبر البلدة فى عربة قاصداً الهافر ليستقل الباخرة المنطلقة الى انجلترا .

ولكن وجدت جثة جوبر بعد يومين فى غابة روفرى ، وهى تبعد عن روان

بعشرة أميال . ووجدت معه الأوراق والمستندات . أما الصندوق الخشبى فقد اختفى . وقد أسفر التحقيق عن أن الخادم المسكين هاجمته فرقة من الألمان فقتلته وسلبته ما معه .

وتوالت الأحداث بعد ذلك ، فاستقبل الكردينال فى أوائل ديسمبر رسولاً أخبره بموت الشيفالية ديزوب ، وقال له أن الشفالية . طلب منه ، قبل موته أن يأتى إليه ويقول له هذه العبارة : ان كلمة السر التى تدل على مكان الصخرة محفورة فى قاع الصندوق الخشبى . أما الشمعدان فقد اخفيته فى حديقتى .»

« وهكذا لم يبق شىء يدل على صحة هذه القصة ... هل هى حقيقية ؟

أم هى مجرد وهم من الشيفالية ديزوب ... ودب الشك فى قلب الكردينال شيئاً فشيئاً .

« وأخيراً عقد عزمه على أن يلزم الصمت . ولكنه كان قد سبق وكتب فى مذكراته قصة الشيفالية ديزوب ونسى أن يحرقها ، ووجدت بين كتبه التى عرضت للبيع بعد موته ...

فسألها راوول قائلاً :

– ومن الذى وجدها ؟

– بومانيان . وكان ينوى أن يدخل فى سلك الرهبنة ... ولكن عثوره على تلك المذكرات أثار أطماعه فترك الرهبنة ، وجمع حوله بعض أصدقائه ، وأخذوا يتحرون ويبحثون الى ان عرفوا ان الكاهن الذى شنق اسمه الأخ نيقولا ، وانه كان أميناً على كنوز دير فيكامب ، وعثروا على مراسلات متبادلة بين بعض كنائس فرنسا علموا منها ان رهبان مدينة كو كانوا يجبون ضريبة من الكنائس الفرنسية الأخرى ، وأنهم جمعوا ثروات طائلة

قام مجلس مكون من سبعة أعضاء باستثمارها ولم يكن هناك من يعرف مكان هذه الثروات غير واحد من الأعضاء السبعة .

ساد صمت عميق ، وحدق راوول فى الكونتس كاليو سترو مفكراً ، ثم قطع حبل الصمت بأن قال :

– وما دورك أنت فى هذه المغامرة يا جوزفين بلسامو ؟ هل تبحثين أنت الأخرى عن هذه الكنوز ؟

– نعم .

– وكذلك بومنيان ... وهو يتقدم فى أبحاثه بسرعة . لقد كان أمس فى مسرح الفارتييه ، ورأى الشريط ذا الجواهر السبع الذى كانت بريجيت تضعه حول رأسها ، وأراد أن يعرف الصلة التى بين هذه الجواهر السبع وبين مكان الصخرة ... ولكننا سنسبقه ، ونعرف هذه الصلة .

– وكيف نعرفها ؟

– سأسأل بريجيت روسلان

– بريجيت روسلان ؟... ألم تمت ؟

– كلا . لا تغضبى يا كونتس كاليو سترو ، فاننى لو لم أخدعك هذه الخدعة لما ذكرت لى شيئاً ، ولتركتنى أتخبط فى الظلام والغموض ، ولسبقنا بومنيان إلى مكان الكنوز .

وتركها وهى ترتعش من فرط الغضب ثم فتح باب المخدع ، ودخل . وسمعته جوزفين يسأل بريجيت روسلان قائلاً :

– أرجو أن لا أثقل عليك يا سيدتى ، ولكن هل تسمحين لى بأن ألقى عليك سؤالاً ؟.

– تفضل .

– من اين أتيت بالجواهر السبع .

– انها أحجار وجدتها فى صندوق خشبى قديم عثرت عليه تحت كومة من التبن فى مخزن البيت الذى تقيم فيه أمي فى قرية ليلبون ، بين روان والهافر .

– وهل وجدت الأحجار كما هى الآن ؟

– كلا . وجدتها معلقة في سبعة خواتم فضية . وقد أتى إلى رجل بالأمس وهنأنى واشترى منى الخواتم ووعدت أن أبيعه الأحجار اليوم .

– وأين هذا الرجل ؟... وما اسمه ؟

– اسمه بومنيان ، ويقطن بشارع فوجيرار .

– شكرا لك يا آنسة روسلان . ان لهذه الخواتم قيمة تاريخية كبيرة ، وهناك أشخاص كثيرون يسعون للحصول عليها . وهم لا يحجمون عن أقتراف أشد الجرائم هولاً فى سبيل أغراضهم . ولذلك فاننى أنصحك بالانتقال من هذا البيت والاقامة فى مكان آخر لا يعرفه غيرك وغير خادمتك اسبوعاً او اسبوعين .

وخرج راوول ، ولكن جوزفين اعترضت طريقه ، وكانت قد فكت ليونار فماكاد يرى لوبين حتى انقض عليه غير أن جوزفين صاحت تأمره بالابتعاد عنه فانصاع لأمرها على الفور . وانثنت الى راوول وسألته أين سيذهب فأجابها قائلاً :

– اننى ذاهب الى بومانيان

وحاولت الحيلولة بينه وبين الذهاب ولكن راوول كان قد صمم على الذهاب
فلم يعبأ بقولها وخرج .

* * *

٩ الخواتم السبعة

وفي بيت بومانيان فتح له الخادم وقال له ان سيده لا يستقبل أحداً دون موعد مسبق فقال له :

- اذهب وقل له اني آت من قبل الآنسة بريجيت روسلان .

غاب الخادم هنيهة ثم عاد وقال : تفضل .

وقاده الى غرفة فيها ثلاثة رجال هم البارون ديتيج واوسكار دى بنيتو وبومنيان ، فما كاد البارون يراه حتى صاح محنقاً :

- انه هو ... هو الذى سرق فرع الشمعدان ... آه ... ما أجرأ هذا الشاب !

ثم حمل عليه ولكن بومانيان تدخل قائلاً :

- اسكت يا جود فرى . ماذا تريد يا سيدى ؟

- اننى أتيت أستأنف الحديث الذى بدأته أنت مع الآنسة بريجيت روسلان بمسرح الفارتيية .

قال بومانيان : لا يمكن استئناف هذا الحديث إلا معها هى .

– انهااصيبت وكانت ضحية محاولة لقتلها للاستيلاء على الأحجار السبعة التى أخذت خواتمها أمس .

اضطرب البارون جود فرى وابن عمه أوسكار دى بنيتو . ولكن بومانيان تمالك نفسه وجعل ينظر الى الشاب بهدوء ، وأخيراً قال له فى استخفاف :

– هذه هى المرة الثانية التى تتدخل فيها بيننا بصورة ستضطرنا ازاءها الى أن نعطيك الدرس الذى تستحق . فى المرة الأولى حبست أصدقائى وسلبتنا شيئاً يخصنا ، وفى هذه المرة أتيت تهيننا ، وأنت تعلم ان هذه الخواتم قد ابتعناها بموافقة صاحبتها ، فما هو غرضك من هذا ؟

أجابه راوول : أنت تعلم جيداً أننى لم أسرق شيئاً ، وانما أسعى الى نفس الغاية التى إليها تسعون .

قال بومانيان متهكماً : هكذا ؟ ... هل تتكرم وتذكر لنا هذه الغاية ؟

– هى العثور على كنوز مخبوءة فى جوف صخرة .

اختفت من وجه بومانيان امارات التهكم على الفور وتمتم :

– أرى أنك على علم بهذه المسألة ، فمن الذى أخبرك ؟

– أخبرتنى بها جوزفين بلسامو ، كونتس كاليو سترو .

كانت المفاجأة شديدة فازداد ارتباك بومانيان واستولي عليه الذعر وقال :

– الكونتس كاليو سترو ... هل عرفتها ؟ ... متى كان ذلك ؟

– عرفتها فى أوائل فصل الشتاء الماضى ، مثلك .

– أنت تكذب يا سيدى . فانى لم أرك معها ولا مرة واحدة .

– ذلك اننى كنت التقى بها سرا ... فقد كانت عشيقتى

اضطرب بومانيان ، وانتفض بدنه واستولت عليه الغيرة . ولكنه تمالك نفسه بجهد كبير وقال :

– لا شأن لنا بعواطف الكونتس كاليو سترو نحوك يا سيدى . ماذا تريد؟

– أريد أن أعرف هذا . كان فى مدينة كو سبعة أديرة كونت لها مجلساً من سبعة أعضاء أخذوا يجمعون ضريبة سنوية من سائر الكنائس والاديرة الفرنسية ، وهذه الضرائب المجموعة كانت تودع فى مكان لا يعرفه غير عضو واحد فقط ... ولكل من هؤلاء الأعضاء السبعة خاتم ذو حجر كبير يختلف لونه عن الألوان الأخرى . وكل خاتم من هذه الأختام عليه اسم الكنيسة التى ينتمى صاحبه إليها . وقد اتخذ هذا المجلس رمزاً له شمعداناً ذا سبعة فروع فى نهاية كل فرع منهاحجر كبير مشابه للحجر الذى فى الخاتم الذى تنتمى كنيسته إليه .

وقد وجدت حجراً كبيراً أحمر فى نهاية الفرع الذى عثرت عليه فى حديقة كنيسة جور . ونحن نعرف الآن أن الأخ ، ينقولا آخر من استؤمن على هذه الكنوز ، كان كاهناً فى دير فيكامب ، فيكفى أن نعرف أسماء الأديرة السبعة لكى تكون دائرة البحث عن هذه الكنوز محدودة . وهذه الأسماء محفورة على الخواتم ... وهذه الخواتم هى التى أريد أن أراها .

انفجر بومانيان ضاحكاً وقال :

– اذن فأنت تريد أن تعرف فى لحظة ما بحثنا نحن عنه فى شهور وسنوات ...

أننى أرفض .

– سأرشد البوليس إليك أنت وأصدقاءك اذن .

– البوليس ؟

– أجل . سأرشدهم إليكم كقتلة جوزفين بلسامو ، كونتس كاليو سترو .

كانت تلك مفاجأة مذهلة ، وكان بومانيان يتوقع من راوول كل شيء إلا هذا الأمر ، فلما سمعه اضطرب كما تضطرب الريشة في مهب الرياح .

وتمتم يقول :

– ألديك أدلة على ذلك ؟

– نعم . فقد شاهدتكم بنفسي وأنتم تحاكمونها ... لقد كنت في نافذة البرج .

– انني في عجب من أمرك أيها الشاب . ما الذى دفعك الى أن ترمى بنفسك في فم الأسد كما يقولون . ألا تعرف انك الآن بين أيدينا ، وتحت رحمتنا ؟

– لست بين أيديكم ولا تحت رحمتكم ، فانني إذا لم أعد بعد ساعة سيلقى البوليس القبض عليكم أنتم الثلاثة . اذا لم أر الخواتم السبعة وأعود قبل نصف ساعة فسيذهب صديق لي الى مدير البوليس بالرسالة التى أرسلتها الى البارون ديتيج لاختطاف جوزفين بلسامو وقتلها .

– الرسالة ... انني استعدتها من البارون وأحرقتها .

– بل أخذت صورة لها وضعتها أنا مكانها وهي التى أحرقتها أنت .

فتح بومانيان درجاً وأخرج الخواتم السبعة وناوله إياها في غضب مكبوت ، ففحصها راوول وكتب الأسماء التى عليها في ورقة ، وهي :

فيكامب ، القديس سان واندريل ، جوميج ، فالمون كروستيه ليفالاس ، سان جورج دى بوشرفيل ومو نفيلييه .

ثم أعادها البارون وسار الى الباب ، ولما بلغه التفت وقال :

– وعلى فكرة ... لا تصدق ما زعمت لك بخصوص الرسالة فهى التى أحرقتها أنت ولم أنقل منها اية صورة ... ولا تصدق كذلك أن هناك صديقاً ينتظر عودتى ، فهذا كله كلام لا أساس له .

وأغلق الباب واختفى قبل أن يفكر بومانيان في اللحاق به .

* * *

١٠ اليد المشوهة

قرأ راوول فى مساء ذلك اليوم فى إحدى الجرائد المحلية النبأ التالى :

« سمع أحد الحطابين صياح امرأة صادراً من محجر فى غابة موليفريية بكوديبيك ، فاتصل برجلين من رجال الشرطة . ولما اقترب الشرطيان من المحجر رأيا رجلان يحملان امرأة الى عربة تقف بجوارها امرأة اخرى ، فأسرع الشرطيان ولكن سرعان ما انطلقت العربة واختفت عن ناظريهما فى جوف الظلام .»

أدرك راوول على الفور ان هذه الفعلة من أفعال جوزفين بلسامو ، واستنتج ان المرأة المخطوفة هى الأرملة روسلان أم الراقصة بريجيت ، فأخذ يراقب زورق جوزفين وجعل يبحث ويتحرى ، فذهب لما بيت الأرملة وبحث عنها فيه فلم يجد لها أثراً .

وفى أثناء تحرياته علم أن الحطاب كوربو وولديه ينتمون إلى عصابة جوزفين وأنهم يقيمون فى كهف يطل على نهر السين فاستنتج فى الحال أن الأرملة سجينة فى هذا الكهف .

وأراد أن يتأكد اذا كان استنتاجه هذا حقيقياً أم خاطئاً فذهب الى

الكهف وعثر على مكان منخفض بجانب الكهف فأقام فيه يومين وهو يفترش الأرض ويلتحف بالسماء . وفى اليوم الثالث سمع حديثاً بين الأب كوربو وولديه تأكد منه أن الأرملة سجينة فى الكهف فعلاً ، فراح يفكر فى تخليصها .

غير انه قبل أن يهديه التفكير رأى زورق جوزفين بلسامو يقترب من الشاطىء ويقف أمام الكهف . ونزلت منه جوزفين هى وليونار . ووقفت جوزفين أمام المدخل فى حين دخل ليونار .

وكان الاب كوربو وولداه يهذبون حديقتهم فتمتم راوول يحدث نفسه : لقد دخل ليونار ليستجوب الأرملة روسلان .

ومرت فترة طويلة وراوول يسائل نفسه عما ينبغى أن يفعل حين طرق سمعه انيناً وصيحات مكتومة . وقد خيل إليه ان هذه الأصوات على مقربة منه ، فزحف الى المكان الذى خيل إليه انه سمع الصوت صادراً منه ، وعندئذ أدرك ما خفى عليه ، فقد رأى أمامه صخوراً وأحجاراً مكومة عرف منها أنها بقايا مدخنة وادرك انها تتصل بالكهف . وانقطع الأنين عندئذ ولكنه سمع صوت امرأة تقول :

– رحماك ... رحماك يا سيدى . نعم ... نعم . سأخبرك بكل شىء ... كان ذلك منذ اثنتين وعشرين سنة ... عندما أخذ الألمان يزحفون على روان... وكان زوجى حينذاك حوذياً ، فأتى إليه رجلان لم يرهما من قبل وطلبا إليه أن يحملهما بمتاعهما الى الشاطىء ، فأقلهما زوجى ، ولكن كانت الليلة ممطرة عاصفة فتعثر جوادنا وسقط ونفق . وخاف الرجلان وخشيا ظهور الالمان ومر فى ذلك الوقت بعربته رجل من روان كان زوجى يعرفه وهو مسيو جوبير خادم الكردينال دى بونشوز . واستوقفه الرجلان وعرضا عليه

مبلغاً كبيراً لكى يبيعهم جواده ولكن جوبير رفض رغم توسلاتهما وتهديدهما له ، وأخيرا انقضنا عليه فى جنون وقتلاه ثم فتشا العربة ووجدا فيها صندوقاً مملوءاً بالمجوهرات اقتسماها وأعطيا زوجى سبعة خواتم والصندوق الفارغ . و قد أثرت هذه المسألة فى زوجى المسكين ومات بعد قليل . ولزمت الصمات بعد ذلك ونسيت الخواتم السبعة الى أن التحقت بريجيت بالمسرح فنزعت أحجارها واستخدمتها فى رقصاتها وهنا سمع راوول ليونار يسألها قائلاً : والصندوق ؟

– لقد أخذه منى رجل ، فى اليوم الذى اختطفتمونى فيه .

– ومن هو هذا الرجل ؟

– لا أعرف . انه رجل طيب القلب أحسن الى كثيراً ... وانا أراه من وقت لآخر .

– وأين ترينه ؟

– لا أستطيع أن أتكلم ... فأنا لا أريد إيذاءه .

فصاح ليونار : ماذا ؟ ... أتريدين أن أعود إلى تعذيبك ؟

ومرت لحظة سمع راوول بعدها الأرملة تصرخ صرخة هائلة وتقول :

آه ... يدى ... ايها الشقى !

– هل ستتكلمين ؟

– نعم ... نعم ... أعدك بذلك .

خفت صوت الأرملة المسكينة ، واستولى عليها ضعف شديد ، وكاد يغمى عليها ، ومع ذلك فقد أصر ليونار والحف عليها فى السؤال فتمتمت تقول :

– نعم ، نعم . اننا سنلتقى يوم الخميس ... عند الفنار المجهول ... ولكن

لا ... لا ... لا يجب ان أتكلم ... اننى أفضل أن أموت ، فافعل ما تريد .

وسمع راوول ليونار يدمدم بكلام فهم منه أن الأرملة أغمى عليها ، ثم سمع صوتا أدرك منه ان ليونار خرج إلى جوزفين .

أدرك عندئذ أن وقت العمل قد حان ، فأبعد الأحجار المتكومة في حذر شديد ثم نزل في هدوء وحرص كبيرين . وكان الكهف مظلماً ، وكانت الأرملة روسلان قد أفاقت من غيبوبتها ففتحت عينيها ، ورأى راوول بريقها فانحنى فوقها وهمس يقول :

– لا تخافى ... لا تخشى شيئاً ... اننى أنقذت ابنتك بريجيت من الموت وقد أتيت لأنقذك أنت أيضاً .

وحملها على كتفه ، ثم فتح باب الكهف بهدوء فرأى فى الخارج جوزفين وليونار يتحدثان بصوت خافت . وكانا موليانه ظهريهما ، وكانت بعض العربات تقف على مسافة غير بعيدة ، ففتح الباب دفعة واحدة وأخذ يجرى نحو تلك العربات .ورآه كوربو وولداه فصرخوا واندفعوا إليه ، وصرخ ليونار غضباً وانضم إليهم . ولكنهم سرعان ما أثروا بالهزيمة فقد اقتربت عربة آتية من الشاطىء وجاءت عربة اخرى من الجهة المقابلة بحيث لم يعد فى وسعهم مهاجمته أمام كل من راكبى العربتين ، فوقفوا فى مكانهم يحرقون الارم غيظاً . واقتربت العربة القادمة من الشاطىء . وكان فيها راهبتان فاستوقفها راوول ، ووضع الأرملة روسلان في عربتهما ، وسألهما أن يعنيا بها مدعيا أنه وجدها على الشاطىء مغمى عليها لأن عربة مرت على أصابعها فهشمتها .

نظرت الراهبتان الى المرأة المسكينة فى عطف ثم أجلساها بجانبهما ، وابتعدت العربة بهم . وكان الطريق قد خلا من المارة فأخرج ليونار خنجرة

ولكن جوزفين قالت له :

– أعد هذا ، ودعنا وحدنا . وأنتم أيضاً يا آل كوربو ... لا داعى لأية حماقة .

ولكن ليونار اعترض قائلاً : إن من الحماقة أن نتركه وقد أصبح بين أيدينا .

صاحت به بلهجة قاطعة : اذهب .

– ولكن تلك المرأة ... تلك المرأة ستبلغ عنا .

– كلا . فليس من مصلحة الأرملة روسلان أن تتكلم .

واذا ابتعد ليونار اقتربت من راوول وقالت له :

– الحياة نضال يا راوول ، فيوم لك ويوم عليك ، وكما يدين المرء يدان ولكن ماذا بك ؟... لماذا تنظر الى بهذه القسوة ؟

أجابها بكل وضوح : الوداع يا جوزين :

امتقع وجهها وسألته : لعلك تريد أن نقول الى الملتقى .

– كلا . بل أقول وداعاً . اننى لا أريد أن أراك ، فأنت مجرمة لا تحجمين عن القتل ولن أنسى ما حييت منظر يد هذه المرأة المسكينة .

مدت إليه يديها فى توسل وقالت :

– يدها ؟... ماذا رأيت ؟ هل أصابها ليونار بضرر ... ولكنني أمرته أن لا يفعل . اننى حسبت انها اعترفت له بمحض إرادتها .

– انت تكذبين يا جوزين ، فأنت قد سمعت صياح تلك المرأة المسكينة وأنينها كما سمعتها أنا ... أنت قاتلة ... تسفكين الدماء وأنا لا أحب أن اسفك دماً ... لا أريد أن أراك .

- كلا ... كلا ...

ولكن راوول حول وجهه وابتعد غير عابىء بتوسلاتها .

* * *

١١ الفنار القديم

راح راوول يضرب فى الأرض طول الليل على غير هدى إلى أن أخذه التعب والاعياء فعرج على حافة صغيرة فى الصباح وأمر صاحبها أن لا يوقظه ونام أربعاً وعشرين ساعة .

وعندما استيقظ تذكر جوزفين فآلمته ذكرى الفراق ، وبرح به الوجد والشوق ، وخيل إليه أنه قد انقضى على يوم فراقه لها آلاف السنين . وغلبه الحنين ، وفكر مراراً فى العودة الى زورقها فيحتويها بين ذراعيه ويضمها الى صدره ويمطرها بقبلاته الملتهبة .

وأخيراً غالب عواطفه ، وعول على نسيان جوزفين وتذكر كلاريس فملأته الحسرة وعذبه وخز الضمير فكتب إليها رسالة صغيرة يقول لها فيها :

« كلاريس ... سامحينى يا حبيبتى ... لقد كنت وغداً ، ولكن أرجو أن تغفرى لى .»

غير أنه رغم ذلك أخذ يفكر فى جوزفين ، فكانت صورتها لا تفارق مخيلته، وكان يراها أينما ذهب وأينما كان ، وبلغ به الوجد الى حداً جعله يفكر فى أن يمضى إليها ويتمرغ تحت قدميها .

وفى مساء اليوم السابق ليوم الخميس ذهب الى الفنار المهجور ، واستكشف داخله وخارجه .

وفى اليوم التالى ، عاد الى الفنار ، ولما اقترب منه حدثه شعوره بأن هذا الفنار سيكون مسرحاً لحوادث رهيبة مهولة ،سيكون لها فى حياته تأثير كبير .

وغامره إحساس بان المعركة الحاسمة بينه وبين العدو قد دنت ، وأن هذا العدو هو الكونتس كاليو ستروبالذات ، فهى التى تعلم بالموعد الذى بين الأرملة روسلان وبين الشخص المحسن إليها . وكان متأكداً من أنه سيراها، ولكنه كان يخشى أن يندفع إليها عندئذ فيحتويها بين ذراعيه رغماً عنه .

بلغ الباب ووقف قليلا فقد خشى أن يكون هناك فخ منصوب . ولكنه سرعان ما أقصى عنه هذا الخاطر وقال :

- فخ !... ما أغبانى ! ولماذا تنصب لى فخاً ؟

ثم فتح الباب ودخل .

وشعر فجأة بأن هناك من يختبىء خلف الباب . ولكن قبل أن يتحول ويلتف إليه أحس بحبل يحوط عنقه ويدا تجره الى الوراء ففقد توازنه ووقع على الأرض فهتف يقول :

- أحسنت يا ليونار ...أحسنت ... ياله من انتقام بديع .

غير انه خدع فى ظنه ، فان الرجل لم يكن ليونار... وإنما كان بومانيان، ورأى وجهه وهو يقيد يديه فقال :

- آه ... آه ... أهو أنت يا وجه القرد ؟

كان الحبل الذى يحيط بعنقه مشدوداً الى حلقه معلقة فى الحائط فوق

نافذة . وفتح بومانيان إحدى مصراعى هذه النافذة قليلاً ثم شد الحبل فارتفع راوول الى أن صارت قدماه عند حافتها ، ثم قيد بومانيان قدميه

كان راوول فى موقف حرج ، فقد كان معلقاً بحيث إذا حاول الحراك الى الأمام اشتد ضغط الأنشوطة التى حول عنقه فخنقته ، وإذا حاول التحرك الى الخلف انفتحت النافذة وتأرجح فى الفضاء ومات شنقاً

وبعد أن انتهى بومانيان من عمله هذا تركه وذهب الى الباب ووقف وراءه ينتظر وقد ضم قبضتيه .

اخذ راوول يفكر . ما سبب وجود بومانيان فى الفنار ؟ أيمكن أن يكون هو الشخص البار الذى تكلمت الأرملة روسلان عنه .

ان هذا الكمين لا يمكن أن يكون قد نصبه له ... لا يمكن أن يكون قد نصب إلا لجوزفين بلسامو ... فلا مراء أنه أدرك أنها لا تزال على قيد الحياة. لا جدال فى ذلك .

أدرك راوول أنه هو نفسه السبب فى أن بومانيان قد علم أن جوزفين بلسامو لم تمت ، فقد كان من الغباء بحيث ذكر له أنه شاهد محاكمتهم لها. وبلغت به الحماقة إلى درجة انه لم يفكر فيما قد ينتج عن ذلك

لا ريب أن بومانيان قد فهم كل شيء وأدرك الحقيقة حين قال له انه شاهد محاكمتهم لها ، وعرف أن جوزفين بلسامو لا تزال على قيد الحياة وأن راوول قد سارع الى إنقاذها بعد أن ابتعد البارون ديتيج واوسكار دى بنيتو .

لبث بومانيان فى مكانه مدة طويلة . وفجأة سمع الاثنان صوت عربة قادمة من بعيد ، فتحفز بومانيان للهجوم . وأراد راوول أن يتخلص من قيوده ولكنه خشى عاقبة عمله .

وقفت العربة أخيراً أمام الفنار ، وبعد فترة وجيزة سمع راوول وقع أقدام تقترب فحاول أن يصرخ ويهيب بالداخل أن لا يدخل ولكن صوته اختنق فى حلقه .

وفتح الباب ودخلت جوزفين بلسامو ، فهجم بومانيان عليها وتدحرج الاثنان على الأرض .

بيد ان بومانيان ، على الرغم من حقده عليها تذكر حبه لها ، فكان فى ذكراه هذه ضياعه ، فقد نهض كالمجنون وراح يشد شعر رأسه فى يأس وغضب .

أما جوزفين فقد نهضت ببطء ، ونظرت الى بومانيان لحظة ثم تحولت الى راوول واقتربت منه وقالت :

– لقد انتظرتك طويلاً يا راوول ، فلماذا لم تأت ؟

– لأن كل شىء بيننا قد انتهى

– انتهى ؟... هل هذا صحيح يا حبيبى راوول .

ثارت ثائرة بومانيان حين سمع هذا التدليل ، فاعتدل فى وقفته على الفور وقد ازداد جنونه ، وحاول أن يمسك ذراعها ، ولكنها ابتعدت عنه وهى تصرخ :

– لا تلمسني ... أيها الوغد ... لا تظن اننى خائفة منك ... انك لا تقوى على قتلى ... فأنت جبان ... ان يديك ترتجفان ، أما يدى فلن ترتجفا حين تدنو نهايتك .

« اننى أحب راوول ... وقد أحببته لكى أنتقم منك ... ولكن حبه ملكنى كلى ولا اريد أن أهجره ... كنت لا أعرف الحب ، ولكننى عرفته عندما

رؤيته... انني أحب كل الحب ... وأنني لأوثر أن اقتله من أن أعرف أنه يحب واحدة غيري . ولكنه يحبني ... أتسمع ... أنه يحبني .

ضحك بومانيان ضحكة هستيرية وقال :

– هل تظنين ذلك حقاً يا جوزفين ؟... هل يحبك ؟ انه يحبك ... نعم كما يحب غيرك... فأنت امرأة جميلة . فاتنة ...

صرخت في وجهه وصاحت تقول :

– لو أتأكد مما تقول لأجعلن حياته جحيماً مستمراً .

– هل تريدين دليلا ؟

– نعم .

– كلاريس ديتيج .

– انني أعرف ذلك ... كان حباً هوائياً .

– انت مخطئة . انه يحبها ، وينوى الزواج منها ، وقد أرسل إليها يطلب غفرانها . وإليك الرسالة التي أرسلها لها فقد أخذتها قبل أن تصل الى يدها .

تناولت جوزفين الرسالة وقرأتها فبرقت عيناها ببريق الغضب والجنون واستولى عليها الضعف وقالت :

– لقد حذرتك يا راوول ... تذكر ما قلته لك .

– وتذكرى ما أقول لك أنت الآن ... إياك وان تلمسي شعرة واحدة منها... تذكرى هذا .

وما كاد ينتهي من قوله هذا حتى سمع صفيراً في الخارج فقالت :

– لقد صفر ليونار ، أليس كذلك يا بومانيان ؟... لا ريب أن الشخص الذى ننتظره قادم . ألم تأت أنت أيضاً لكى تراه ؟

نقلت بصرها من بومانيان الى راوول ، فلما رأته مقيداً ومعلقاً لم تخش شيئاً من جهته ، غير انها تلبث أن نظرت الى بومانيان فى قلق ، فمسكته واقتربت من الباب ، وما كادت تصل إليه حتى فتح ودخل منه ليونار وعلى وجهه أمارات الانفعال الشديد .

نظر الى الرجلين نظرة سريعة ثم انحنى ناحية بالكونتس كاليو سترو وهمس فى اذنها ببضع كلمات فاستولت عليها الدهشة وتمتمت :

– ماذا تقول ؟... ماذا تقول ؟

وحولت وجهها حتى لا يلحظ أحد انفعالها . ولكن راوول ظن أنها مبتهجة. وقالت :

– لا تتحرك يا بومانيان . ان بعضهم قادم . أخرج مسدسك يا ليونار ، ولكن بومانيان اندفع نحو الباب وحاول أن يفتحه فقالت له :

– هل جننت يا بومانيان ؟... ماذا هناك ؟ ابق مكانك .

غير انه أدار الاكره فمسكته وسألته قائلة :

– لماذا تريد أن تفتح الباب ؟... هل تعرف الشخص القادم ، وهل تحاول أن تمنعه من الدخول ، أم انك تريد أن تستأثر به وحدك ؟

لم يهتم بومانيان بقولها وأراد الاكره ، فلما رأت جوزفين ذلك ، التفتت الى ليونار وأشارت اليه أمرة فأخرج مدية من جيبه أغمد نصفها فى كتف بومانيان فتأوه قائلاً :

– آه ... أيتها الشقية .

ووقع على الأرض ، وجره ليونار الى ركن من الغرفة . وفحصت جوزفين جرحه ثم قالت :

- ان إصابته غير خطيرة .

ثم شدت وثاقه ، واسندت ظهره الى الجدا ، وعادت فوقفت خلف الباب فى انتظار القادم .

وبعد دقائق سمع راوول أقداماً تقف أمام الباب فأراد أن يصرخ ولكن الصوت احتبس فى حلقه كما احتبس فى المرة الأولى .

وفجأة دارت رأسه وكاد يفقد صوابه ، فقد انفتح الباب ، وظهرت منه كلاريس ديتيج

* * *

١٢ جنون وعبقرية

لم يخش راوول داندريزى على حياته من بومانيان ولا من الكونتس كاليو سترو كما خشى على حياة كلاريس ديتيج .

كان يعرف ان الكونتس تحبه إلى درجة الجنون ، وأنها تغار من كلاريس كل الغيرة وتتحين الفرصة لابعادها عن طريقها .

أما كلاريس فقد حدقت فيها فى دهشة ممزوجة بالخوف ، ووقفت وهى كالمأخوذة أمام المسدس الذى يمسكه ليونار فى يده ، ثم حولت بصرها الى راوول وقالت :

– ما الخبر يا راوول ؟... ولماذا أنت مقيد هكذا ؟

وبسطت يديها إليه كأنها تطلب مساعدته أو تحاول أن تمد إليه يد المساعدة .

نظر راوول إليها وهو يشعر بألم شديد فرآها ممتقعة الوجه غائرة العينين، تدل ملامحها على أنها قضت أياماً كثيرة لم تذق فيها طعم النوم فأدرك أنها اعترفت لأبيها بهفوتها ، وآلمه ذلك ، ولكنه قال بهدوء :

– ليس هناك ما أخشى منه يا كلاريس . وكذلك ليس هناك ما أخشى

عليك منه .

وعندئذ ، وقعت عيناها على بومانيان فازدادت دهشتها وتحولت الى ليونار وسألته قائلة :

- ماذا تريديون مني ؟... ومن الذى أحضرنى هنا .

قالت جوزفين بلسامو : أنا يا آنسه .

رأت كلاريس جمالها فانتقضت ، والتمست العذر لراوول لوقوعه فى حبالها وقالت :

- من أنت ؟... اننى لا أعرفك ؟

- أما أنا فأعرفك ... أنت ابنه البارون ديتيج ... وأعرف كذلك انك تحبين راوول .

أطرقت كلاريس برأسها الى الأرض خجلاً . وكأن الكلمة التى نطقت بها جوزفين قد افقدتها رشدها . واستطردت جوزفين تقول :

- منذ ثلاثة شهور ، اختطفت امرأة عند نزولها من القطار واقتيدت الى قصر ديتيج حيث اجتمع أبوك و بومانيان وآخرون . ولن اذكر ما حدث ، غير انى اكتفى فأقول انهم عقدوا العزم على قتل تلك المرأة فقيدوها وحملوها إلى قارب مثقوب مضى به أبوك وأوسكار دى بنيتو إلى عرض البحر ثم تركاها وعادوا الي القصر .

- كلا ... كلا ... هذا غير صحيح ... لا يمكن أن يكون أبى قد فعل ذلك.

غير أن جوزفين استأنفت حديثها غير عائبة باعتراضها فقالت :

- وقد شاهد رجل محاولتهم تلك فسارع إلى إنقاذها ... فمن اين أتى هذا الرجل ... كل القرائن تدل على أنه قضى اليوم فى غرفتك . ليس بصفته

خطيباً ولكن بصفته عشيقاً .

ازداد خجل الفتاه وصدر منها أنين يدل على الذلة والانكسار ، وقالت :

- أواه يا سيدتى ... ماذا تقولين ؟

- اننى أعيد ما عترفت أنت به لأبيك . هل أقول لك ما حدث فى نفس اليوم الذى استسلمت فيه لراوول داندريزى ؟... فى نفس اليوم الذى لطخك فيه بالعار ؟... لقد هجرك ونبذك ، وتبع المرأة التى أنقذها وأقسم لها انه لا يحبك وأن حبه لك كان حباً هوائياً .

« ولكن حدث سوء تفاهم بين راوول وبين عشيقته الجديدة ، واكتشفت ان راوول راسلك ، وكتب لك رسالة يقول لك فيها انه نادم ويسألك الصفح والغفران ... هذه المرأة هى أنا ... وهذا هو سبب عدائى الشديد لك .

سكتت كلاريس ولم تتكلم ... وداهمها خوف شديد ، ونظرت الى جوزفين وهى لا تستطيع أن تتحرك ، فلما رأى راوول ذلك ، هتف يقول :

- لا تخشى شيئاً يا كلاريس ... اننى اقسمت أن لن يمس أحد شعرة واحدة من رأسك ... لا تخافى ... ستخرجين من هنا سالمة بعد عشر دقائق... لا اكثر .

وتابعت الكونتس كاليو سترو حديثها قائلة :

- سأذكر الآن القصة التى تهمنا . ان أباك وبومانيان يسعيان إلى هدف أسعى أنا إليه ، كما يسعى إليه راوول . وقد نشأ بيننا عداء مستحكم ، وحاول كل منا ، ولايزال ، أن يسبق الآخر ، وقد اتصلنا جميعاً بأرملة عجوز تدعى مدام روسلان ، كان عندها صندوق خشبى نحن بحاجة إليه لكى نبلغ الهدف الذى نسعى اليه .

« وقد استجوبنا هذه السيدة بكل الطرق وبشتى الوسائل ، فعلمنا منها أنها أعطت الصندوق لشخص لم تشأ أن تذكر اسمه لأنه أحسن اليها كثيراً. ولكننا عرفنا منها قصة قديمة سأذكرها لك بايجاز لأنها تهمك كما تهمنا .

صاح راوول : كلا ... كلا .... لا تذكرى شيئاً يا جوزين ... لا تقولى شيئاً .

بيد أنها تظاهرت بأنها لم تسمعه واستطردت تقول :

– منذ اثنتين وعشرين سنة ، أى أثناء الحرب بين فرنسا وبروسيا ، هرب رجلان فى عربة مسيو روسلان ، وقتلا فى الطريق خادماً يدعى جوبر للاستيلاء على جواده ، ثم سلباه صندوقاً مملوءاً بالجواهر الثمينة واقتسماه، وتخليا عن الصندوق وسبع جواهر لمسيو روسلان ، الذى مات غماً وكرباً . وقد خشى القاتلان ثرثرة الأرملة فاتصلا بها وأغدقا عليها المال ، وأظن انك أدركت الآن من هما هذان القاتلان ؟

كانت كلاريس تصغى فى فزع شديد وهى تقوى على الحراك ، فلما رأى راوول ذلك صاح يقول :

– اسكتى يا جوزين . اسكتى ... ما الفائدة من كلامك هذا ؟

فقالت : ما الفائدة ؟... لأن الحقيقة يجب أن تعرف . يجب أن تتألم كما أتألم أنا .

فتمتم يقول فى غضب : ما أشد قسوتك !

غير أنها لم تعبأ بقوله وتحولت إلى كلاريس وأردفت :

– وفر أبوك وابن عمه بنيتو بعد ذلك وسائل الراحة لمدام روسلان ،

واشترى لها بيتا فى ليلبون لكى تكون تحت مراقبته ، وأخذت أنت تترددين وتلعبين مع ابنتها بريجيت ، فأحبتك ومالت إليك .

« وفى إحدى هذه المرات وقع نظرك على الصندوق الخشبى الذى نبحث عنه ، أنا وراوول ، فراق لك وأخذته معك الى قصر أبيك ، وعندما عرفت أنا وراوول ان الصندوق أخذه منها شخص لم تشأ أن تذكر اسمه ، وان هذا الشخص يغدق عليها بالمال وأنه وفر لها وسائل الراحة ، وانهما يلتقيان من وقت لأخر عرفنا فى الحال انه يكفى أن نأتى الى الفنار المجهول بدلاً من مدام روسلان لكى نعرف الحقيقة التى نبحث عنها .

لزمت كلاريس الصمت واغرورقت عيناها بالدموع ، فلم يشك راوول فى أنها كانت تجهل جرم أبيها ، وتأكد أنها تألمت حين علمت أن أباها قاتل ، والحق ان جوزفين بلسامو قد أصابت بسهمها ، فانتقمت من كلاريش أروع انتقام .

كان ألمها شديداً ... أبوها قاتل ؟... أحق هذا ؟ أم أن الكونتس كاليو سترو تكذب وتفترى ؟

وكان الكونتس أدركت ما يجول فى خاطرها فقالت :

– نعم ، ان أباك قاتل . ان أمواله وقصره وجياده اتته من الاجرام . أليس كذلك يا بومانيان ؟... انك عرفت سره فراحت تهدده ، وانتهزت جريمته الأولى فارغمته على قتل الذين يضايقونك ، أليس كذلك ؟

بحثت عيناها عن عين راوول ، وكأنها تعتذر عن الجرائم التى اقترفتها هى بأن ذكرت جرائم البارون ، ولكنه قال لها فى صوت خشن غليظ :

– وماذا تريدين منها الآن ؟ ماذا تريدين من هذه الفتاة المسكينة ؟

– أريد منها ان تتكلم .

– وهل تطلقين سراحها اذا تكلمت ؟

– نعم .

– اذن ، اسأليها ... هل تريدين أن تعرفى العبارة المحفورة فى قاع الصندوق ؟

وكان ألم كلاريس شديداً ، وكان الضعف قد اعتراها وأوشكت أن تقع على الأرض من فرط الاعياء . وهتف راوول يشجعها :

– تشجعى يا كلاريس ... أجيبها على الاسئلة التى ستلقيها عليك ... أجيبها ولا تخشى شيئاً فانك له تصابى بسوء .

ورأى راوول ان لهجته قد أعادت الى الفتاه شجاعتها فقال :

– ماذا فعلت بذلك الصندوق ؟... هل ذهبت به الى القصر ؟

– نعم .

– لماذا ؟

– رأيته فراق لى منظره .

– وهل رآه أبوك ؟

– نعم .

– وهل أخذه منك ؟

–أجل .

– لماذا ؟

– لا أدرى

– هل رأيت فى قاعة كلمات محفورة ؟

– أجل .

– وما هى .

– لا أظن اننى أتذكرها .

قال راوول : بل يجب أن تتذكريها ... نعم ، يجب .

– اننى لم أهتم بها ، لأنها كلمات لم أفهم لها معنى . ولكننى أتذكر أننى قرأت بينها كلمة صخرة .

– يجب أن تتذكرى يا كلاريس ... يجب ذلك .

فكرت كلاريس ، وارتسمت على ملامحها أمارات الاجتهاد ، وأخيراً تمتمت تقول

– نعم ... اننى أتذكر ... هاهى الكلمات التى قرأتها : انسان'لبييب سوف يجد هذِه الصخرة . »

صاحت جوزفين تقول فى غضب :

– أنت تكذبين ... لقد كنا نعرف هذه الكلمات ... توجد كلمة واحدة اخرى ... فأذكريها .

لزمت كلاريس الصمت وقد تملكها خوف عظيم ، فاستحثها راوول قائلاً :

– فكرى يا كلاريس ... تذكرى ... ألم ترى كلمة أخرى .

– كلا . لا أظن اننى رأيت كلمات أخرى .

– تذكرى ... يجب أن تتذكرى ، فان حياتك متعلقة بهذه الكلمة . وكانت لهجته رقيقة تدل على مبلغ اهتمامه بها ، فاستولى الغضب على جوزفين بلسامو واشتعلت نيران غرامها فأمسكت بيد كلاريس وقالت فى لهجة قاسية :

– تكلمى ... تكلمى وإلا تركت ليونار يتولى أمرك .

جمع راوول كل عضلاته وحاول الخلاص وهو يقول :

– أيتها الشقية ... ماذا ستفعلين بها ؟ ألا تعرفين معنى الشفقة و الرحمة ؟

هل قد قلبك من حجر . ليونار ... الويل لك إن مسست هذه الفتاه بسوء.

فقالت جوزفين فى سخرية :

– هل تحبها إلى هذه الدرجة ؟ أيحز فى قلبك انها ستتعذب . ان الطيور على أشكالها تقع ، فهى ابنه قاتل أثيم وأنت لص .

وانثنت الى كلاريس وقالت :

– نعم . لص ... ان عشيقك لص ... عاش لصاً طوال عمره ... كان يسرق وهو طفل ... لقد سرق ليقدم لك ذلك الخاتم الذى تضعينه فى اصبعك، ولكى يقدم لك زهوراً ... انه لص محتال . حتى اسمه الحقيقى هو أرسين لوبين ... تذكرى هذا الأسم يا كلاريس ... فسيكون اسماً مشهوراً .

« اننى شاهدته وهو يمارس عمله ... انه بارع جداً ... ستكونا زوجين رائعين ... ذلك إذا لم أحول بينكما ... سيكون إبنكما ظريفاً ... ابن ارسين لوبين وحفيد البارون ديتيج

وزاد غضبها وهى تنطق بهذه العبارة الأخيرة وقالت :

– هيا يا ليونار ... عليك بها .

فصاح راوول وهو يغلي من الغضب هو الآخر .

– أيتها الشقية ... الويل له ولك اذا لمستما شعرة واحدة من شعرها ... الويل لكما .

وبذل مجهوداً لم يحتمله جهاز بومانيان فوقع على الأرض .

ساد الصمت هنيهة . ولكن القيد كان متيناً فلم يرتخى ، فعاد الهدوء الى جوزفين . وأخرج ليونار مسدسه ووضع فوهته على صرغ كلاريس .

وقال الكونتس :

– اذا أتى بأية محاولة فاقتلها .

لزم راوول الهدوء عندئذ ولم يتحرك ، فقد كان لا يشك فى أن ليونار لن يحجم عن تنفيذ ما أمر به ، وخشى على حياة كلاريس ، وقالت جوزفين :

– أرى انك فهمت حقيقة موقفك وانك ثبت إلى عقلك .

قال راوول : كلا . ولكننى أفكر .

– فى أى شئ ؟

– لقد وعدتها انها ستخرج ساعة ، وقلت لها انه ليس هناك ما يخشى منه عليها ، وأريد أن أبر بكلمتى .

– لقد سبق السيف العذل .

– كلا يا جوزفين ، فأنت ستطلقين سراحها .

لم تحفل بقوله وتحولت الى ليونار وقالت :

– هيا يا ليونار .

ولكن راوول صاح : توقف ... أطلق سراحها ... هل تسمعين يا جوزفين؟... أريد أن تطقى سراحها .

كان يتكلم بلهجة الواثق من أمره ، كما لو كان يعتقد أن أمره سيطاع ، فبدأ الشك على وجه جوزفين وترددت . على أن ترددها سرعان ما تلاشى

وتمتمت تقول :

- ولماذا أطلق سراحها ... ألديك سبب معقول ؟

- نعم ... سبب سيرغمك على إحناء هامتك والنزول على أمرى .

فسألته وقد ازداد قتلها : وما هو ؟ ماذا تريد ؟

- أريد أن تخلى سبيل كلاريس وأن تدعيها تعود إلى بيتها سالمة .

فضحكت فى استهزاء وقالت : أهذا كل ما تريد ؟

- نعم .

- وماذا تقدم لى نظير ذلك ؟

- سر اللغز

فارتجف وسألته : هل تعرفه .

- نعم

وهكذا تغير الموقف وانقلب فى لحظة وجيزة ، فلم تفكر الكونتس كاليوسترو فى الانتقام ، وتراقصت جواهر الرهبان أمام عينيها ، وهذا ما أراده راوول . وأرهف بومنيان أذنيه . وقالت جوزفين :

- هل يكفى أن أعرف سر اللغز

أجاب راوول : كلا . بل يجب أن تعرفى المعنى المراد منه .

- وهل عرفت أنت المعنى ؟

- نعم .

كانت جوزفين تعرف أن راوول ليس ممن يمزحون فقالت .

- اذكر لى هذا السر فأطلق سراح كلاريس .

– بل اطلقى سراحها أولاً فأتكلم ، ولن أتكلم بالطبع وأنا مقيد هكذا . ولكن بعد أن يحل وثاقى .

– هل جننت ؟... اننى أسيطر على الموقف .

– بل أنا المسيطر عليه الآن ، فأنت لا تستطعين شيئاً من غيرى .

فهزت كتفيها وقالت : اقسم لى انك ستتكلم . أقسم بقبر أمك .

فقال : اقسم بقبر أمى أننى بعد أن تخرج كلاريس من هنا بعشرين دقيقة سأخبرك بمكان الصخرة المخبوءة فيها كنوز الرهبان

ترددت جوزفين هنيهة ، وأخيراً التفتت الى ليونار وقالت :

– دعها يا ليونار ... وفك قيوده .

نظر ليونار إليها فى شئ من السخط كأنه لا يقرها على عملها هذا ولكنه ابتعد عن كلاريس ... وفك قيود راوول على كره منه .

وحرك راوول ساقيه وذراعيه بضع لحظات حتى جرى الدم فى عروقه ، ثم اقترب من كلاريس وقال لها :

– اننى التمس معذرتك عن كل ما أصابك ياكلاريس . ولكن لن يقع لك شئ بعد ذلك فأنت فى حمايتى ، فاخرجى الآن ، ولاتخشى على . سنلتقى فى القريب العاجل مهما كانت الموانع والعراقيل .

وخرجت كلاريس ، وأغلق الباب وراءها ثم وقف ينتظر .

ساد صمت عميق خلال عشرين دقيقة كان راوول فى اثنائها يختلج قلبه سروراً وابتهاجاً لنجاة كلاريس . وأخيراً قالت جوزفين .

بلهجة الأمر :

– تكلم الآن .

ومع ذلك فقد انتظر دقيقة طويلة قبل أن يتكلم ، ثم أخرج ورقة كتب فيها:

« انسان لبيب سوف يجد هذه الصخرة .»

وتملكه الانفعال وتغيرت ملامحه فجأة فقالت جوزفين فى لهفة :

– ما الخبر يا راوول ؟

فرد عليها قائلاً . ان رهبان القرون الوسطى كانوا أغبياء مجانين ، ولم يكن الذين بحثوا عن كنوزهم بأقل منهم غباء وجنوناً . فقد وضعوا كنوزهم فى مخبأ عادى ... عرضه للظهور فى أى وقت .

وسكت هنيهة ثم استطرد : نعم ... نعم ، هو ذلك ... ان كلمة السر موجودة فى نفس الكلمات الخمس التى ذكرتها كلاريس والتى قالت انها رأتها فى قاع الصندوق . وهذه الكلمة مكونة من الحروف الأولى من الكلمات الخمس المحفورة ... وهى « السها » ، واذا عرفت ان السها اسم نجم صغير من النجوم السبع المعروفة بالدب الأكبر ، أدركت كل شىء يا جوزفين.

بدا على الكونتس انها لم تدرك غرض راوول فقالت :

– ولكننى لا أفهم المعنى المراد من هذه الكلمة .

– حقاً . ستفهمين الآن . ان الأديرة السبعة المذكورة والتى كانت تجبى الضريبة لها وضع خاص . وقد رسمت هذه الأديرة على هذه الورقة فوجدت ان مكان كل منها فوق الأرض مماثل لمكان كل نجمة من نجوم الدب الأكبر ،

وعند ذلك رأيت ان هناك علاقة بين نجمة السها وبين مكان الصخرة التى فى جوفها الكنوز اننى ما كدت أرى ذلك حتى عرفت على الفور ما أقول لك الآن .

تمتمت تقول : اننى لا أفهم ما تقصد أن تقول !

- ان مواقع نجوم الدب الأكبر تنطبق تماما مع مواقع الأديرة السبعة ، وحيث اننا عرفنا أن كلمة السها من النجوم هو نفس المكان الذى يشير الى مكان الصخرة فى الأرض وأعنى به دير جوميج

فما كادت الكونتس تسمع ذلك وتعى ما يقول حتى ضربته على رأسه بمقبض عصاتها . وكان ذلك آخر شيء يتوقعه ، رغم انه كان يعرف ان كاليو سترو معتادة على مثل هذا العمل الخبيث . وانحنى الى النصف فى مقعده ثم وقع على ركبتيه ، وتمدد بطول جسده وهو يقول :

- آه ... المجرمة ! انها حتى لم تحترم العبقرية . آه ... أيتها الشقية ! هل قد قلبك من الحجر . سحقاً لك يا جوزفين . كان فى مقدورنا أن نقتسم الكنز معا ، أما الآن فسأحتفظ به وحدى .

* * *

١٣ خزانة الرهبان

كان مجرد أغماء بسيط كذلك الذى يصيب الملاكم عندما يتلقى لكمة فى مكان حساس ، ولكنه عندما أفاق رأى دون أية دهشة على كل حال ، انه فى نفس موقف بومانيان ، أسير مثله وظهره الى الحائط .

ولم يشعر بأية دهشة كذلك عندما رأى جوزفين ممدة بين مقعدين وهى فريسة انهيار عصبى كذلك التى تتسبب يها أشد الانفعالات عنفاً ، والضربة التى أصابت بها راوول هى التى تسببت فى الأزمة . وكان شريكها ليونار يعنى بها ويقرب من أنفها بعض الأملاح .

ويبدو أنه استدعى أحد شركائه لأن راوول رأى الشاب الذى يعرفه باسم دومنيك والذى كان يحرس العربة أمام بيت بريجيت روسلان .

قال دومنيل عندما دخل ورأى الأسيرين :

– يا للشيطان ! أرى انه قد وقعت مشاجرة ! بومانيان وداندريزى ... ان الزعيمة قوية وعنيفة ، والنتيجة صدمة انفعالية .

قال ليونار : انتهى الأمر تقريباً .

– وماذا نفعل الآن ؟

– نحملها الى العربة ونمضى بها الى الزورق .

وهما بأن يرفعاها ولكنها قالت فى صوت خافت جداً متخيلة ان راوول لن يسمعها :

– كلا . سأسير وحدى . وستبقى أنت هنا يا ليونار ، لكى تراقب راوول .

قال ليونار فى غير كلفة : دعينى أسوى حسابى معه ، فانه سيصيبنا بكل شىء .

– اننى أحبه .

– ولكنه لا يحبك .

– بل سيعود إلى . ثم اننى لن أتخلى عنه ، مهما يحدث .

– ماذا تقررين إذن ؟

– لابد أن الزورق فى كوديبيك الآن . سأستجم فيه حتى أول ساعات النهار فاننى بحاجة الى الاستجمام .

– والكنز ؟ لابد من بعض الناس لمعالجة صخرة بذلك الحجم .

– سأخطر الأب كوربو وولديه لكى يوافوننى غداً صباحاً فى جوميج ، ثم اهتم بعد ذلك براوول ، مالم ... ولكننى لا أطلب اكثر من ذلك فى الوقت الحاضر ، فاننى مرهقة .

– وبومانيان ؟

– سنطلق سراحه بعد حصولى على الكنز .

– ألا تخشين أن تبلغ كلاريس عنا ، وأن يحاصر رجال الشرطة الفنار ؟

– ما أحمقك ! اتظن انها ستطلق رجال الشرطة وراء أبيها وراوول ؟

ونهضت من مقعدها ، ولكنها سرعان ما نهارت من جديد ، وبذلت جهداً خارقاً حتى أفلحت فى الوقوف . واقترب من راوول وهى تعتمد على دومنيك وهمست :

– انه مغمى عليه . راقبه جيداً يا ليونار ... والآخر أيضاً ، فلو أن أحدهما هرب لانهار كل شيء .

ومضت فى بطء . وارفقها ليونار حتى العربة ، وعاد بعد قليل ومعه سلة بها بعض الطعام ، ثم سمع الجميع وقع حوافر الجياد وهى تنطلق فى الطريق .

وكان راوول يتحقق فى تلك اللحظة من متانة قيوده وهو يقول لنفسه « ان الزعيمة ضعيفة فى الواقع ، فهى أولاً تكلمت عن نواياها بصوت خافت غير اننى سمعت كل ما قالت ، وثانيا عهدت بمراقبتنا الى رجل واحد ، وهذا يدل على عيب طبيعى .

ومرت ساعات ، وهبط الليل ، وبدا كأن بومانيان قد نام فراح يعالج قيوده ولكن ليونار قال له : دع القيد وإلا حطمت رأسك ، ثم أمسك بطرف قيده وربطه بطرف قيد بومانيان ولف بقية القيد حول مقعد ووضع فوقه السكين التى أعطتها له جوزفين ثم جلس يدخن غليونه ، فى حين راح راوول يناجي نفسه ويلومها لأنه لم يكن شديد الحرص مع جوزفين :« كان يجب أن أتوخى الحذر معها . انها لن تتفاهم معى أبداً ، ولكنها شديدة العزم شديدة الوضوح ، ولا ضمير لها على الاطلاق . إلا أن بها عيباً واحداً يبعدها عن الكمال وهو جهازها العصبى المختل . وهذا يسعدنى لأنه سيتيح لى أن أصل قبلها الى صخرة جوميج .

ذلك لأنه لم يشك لحظة واحدة فى استطاعته الهرب من ليونار . وتجمعت

خيوط الظلام فى الغرفة ، فأشعل ليونار شمعة ودخن غليونه للمرة الثانية وشرب كأساً أخيرة من النبيذ ، وراح يغفو وتميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال . وكانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء ، وقال راوول : اذا تمكنت من الهرب فى الساعة الحادية عشرة فسوف اكون فى ليلبون فى نحو منتصف الليل حيث أتناول العشاء ، ثم أصل فى الساعة الثالثة صباحاً الى المكان المقدس ، وما أن يبزغ الفجر حتى أكون قد ملأت جيوبى بكنوز الرهبان .

ولكنه كان لا يزال كما هو في الساعة العاشرة والنصف ، وبدأ يشعر باليأس ، عندما أحس بنسمة من الهواء تدخل من النافذة الجانبية وكان ليونار قد واربها فى شئ من الأهمال . والواقع ان إحدى مصراعى النافذة بدأ يتحرك الى الداخل ، فنظر راوول الى بومانيان . كان هو الآخر قد احس بنفس النسمة ورأى النافذة تتحرك ، وتساءل راوول : من ؟ أيكون الفلاحين... أو نجدة غير متوقعة ... صديق لبومانيان ؟... أو متشرد اعتاد أن يقضى الليل فى الفنار .

وظهرت رأس فى الظلام ، وتسلق شخص النافذة بسهولة . وأدرك راوول على الفور أنها امرأة ، وعرف على الفور كذلك انها كلاريس .

غمره انفعال لا يوصف . اذن فقد أخطأت جوزفين بلسامو عندما افترضت أن كلاريس لا يمكن أن تتصرف . ولاريب أن الفتاة أخذها القلق ، واحتجزها الخوف من الأخطار التى تهدده فتغلبت على تعبها وخوفها وكمنت غير بعيد عن الفنار ، وانتظرت هبوط الليل ، وهى تحاول الآن المستحيل لكى تنقذ ذلك الذى غدر بها بكل قسوة .

تقدمت ثلاث خطوات . وتحرك ليونار . ولكنه كان يوليها ظهره لحسن

الحظ فتوقفت ، واذ لم تصدر منه أية حركة من جديد تقدمت وأخذت السكين من فوق المقعد وقطعت طرفي القيدين وهي تحرص على أن لا يتحرك المقعد من مكانه . وشاء الحظ ان لا يستيقظ ليونار ، ولو انه استيقظ لقتلته على الفور . وانحنت فوق راوول وهي تتحسس بيديها باحثة عن قيوده ، وخلصت قبضته ، وقال :

– اعطني السكين .

أطاعته ، ولكن بومانيان كانت أسرع منه ، فقد كان يعالج قيده منذ وقت طويل وأفلح في تحرير يديه ، فالتقط السكين ، واغتاظ راوول فأمسك بذراعه ، فان بومانيان إذا تخلص من قيده قبله فان كل أمله في حصوله على الكنز سيضيع . وكانت معركة عنيفة وصامتة ، يستخدم كل منها فيها قوته وهو يعلم أن أقل حركة ستوقظ ليونار حتماً .

وراحت كلاريس تنتفض من الرعب وهي جاثية على ركبتها ، تحاول التوسل الى الرجلين ، وتحرص على أن لا تقع في نفس الوقت . ولكن جرح بومانيان ، رغم عدم خطورته لم يسمح له باستمرار المقاومة فلم يلبث أن توقف .

في هذه اللحظة حرك ليونار رأسه وفتح عيناه ونظر الى المنظر الذى أمامه : الرجلين المنحنيين والقريبين ، أحدهما من الآخر وهما يتعاركان ، وكلاريس ديتيج على ركبتها .

ودام ذلك بضع ثوان ... بضع ثوان مخيفة لأنه لم يكن هناك شك في ان ليونار وهو يرى هذا المنظر لن يتردد في أن يصرعهما بمسدسه ، ولكنه لم يره ، فان عينه التى حدجتهما لم تستطع أن تراهما . وانطبق الجفن دون أن يستيقظ الوعي .

وعندئذ قطع راوول قيد قدميه ووقف والخنجر فى يده . كان حرا ، وهمس وكلاريس تنهض واقفة : امضى ... انجى بنفسك .

قالت : كلا .

وأشارت له برأسها الي بومانيان ، كما لو أنها لا ترضى أن تتركه خلفها، معرضا لانتقام ليونار .

وأصر راوول ، ولكنها لم تتزحزح من مكانها . ولم يسع راوول عندئذ إلا أن يقر بعجزه وناول السكين لغريمه وهو يمس :

– انه على حق . علينا أن نكون باردى الاعصاب . وتدبر أمرك . ولكل منا ، منذ الآن ، حظه ونصيبه .

وتبع كلاريس ، فتسلق كل منهما ، الواحد بعد الآخر النافذة . وإذ خرجا من الفنار أمسكت بيده وقادته حتى الجدار ، حيث توجد ثغرة ومرت منها بمساعدته ، ولكنه عندما تسلق الجدار بدوره لم ير أحدا فقال : كلاريس ... أين أنت .

كانت الليلة مدلهمة لا نجوم فيها . وسمع خطوات خفيفة تجرى بين الأدغال ، فولجها ولكنه اصطدم بالأغصان والأشواك قاطعة عليه الطريق فاضطر أن يعود وفكر : انها تهرب مني . غامرت بكل شىء وأنا سجين لكى تنقذني . والآن وقد أصبحت حراً فهى لا تريد أن ترانى ، فان خيانتى لها ، وجوزفين بلسامو ، والمغامرة الفظيعة ، كل ذلك أفزعها .

ولكنه ما ان خرج من نطاق الفنار حتى انحدر شخص من الجدار الذى سبق أن تسلقه . هرب بومانيان بدوره ، وعلى الفور دوت طلقات نارية فى نفس الاتجاه وأسرع راوول فلجأ الى مكان أخر ، فقد كان ليونار منحنياً فوق الثغرة ، وراح يطلق النار فى الظلام .

* * *

وهكذا انطلق الغرماء الثلاثة في حوالى الساعة الحادية عشرة ، في نفس الوقت ، الى صخرة جوميج ، على بعد إحدى عشرة مرحلة ، مضى كل منهم بوسائله الخاصه ، وأصبح الأمر مرهوراً بذلك .

كان هناك بومانيان وليونار ، وكل منهما له شركاؤه ، وعلى رأس منظمات قوية ، فاذا كان أصدقاء بومانيان ينتظرونه ، واذا استطاع ليونار أن ينضم الى الكاليو سترو ، فان الغنيمة ستكون من نصيب الأسرع . ولكن راوول كان أصغرهم واكثرهم نشاطاً وحيوية ولو أنه لم يكن من الحماقة بأن ترك دراجته فى ليلبون لكانت كل الفرص مواتيه له .

ويجب الاعترف بأنه تخلى مؤقتاً عن تعقب كلاريس فان البحث عن الكنز كان شاغله الوحيد ، فاجتاز العشرة كيلو مترات التى تفصله عن ليلبون فى ساعة ، وأيقظ خادم حانته ، وتناول طعاماً سريعاً ، وبعد ان أخذ فى حقيبتين صغيرتين بضع خراطيش من الدناميت ، كان قد حصل عليها من قبل ذلك بايام ، ركب دراجته بعد أن لف على مقودها حقيبة من القماش لكى يضع الأحجار الكريمة فيها .

وحسب حسبته كما يلى :

- من ليلبون الى جوميج ثماني مراحل ونصف سأكون هناك قبل طلوع النهار ، وسأعثر على الصخرة وأفجرها بالدناميت ... ومن الممكن أن تفاجئنى الكاليو سترو أو بومانيان فى منتصف العملية ... وفى هذه الحالة لابد من نقتسم .

وتجاوز كوديبيل ، وسار على قدميه حتى التلة التى تؤدى إلى نهر السين. كان زورق جوزيفين موجوداً ، ورأى نوراً منبعثاً من نافذة القمرة التى تشغلها المرأة الشابة فقال : لا ريب انها تستبدل ثيابها . وستأتى المركبة

للبحث عنها ، وربما يعجل ليونار العملية ولكن فات الوقت أيتها السيدة !

وانطلق بكل سرعة ، ولكن فيما هو يهبط الساحل في موضع وعر أحس بأن عجلة الدراجة اشتبكت في عقبة ولم يلبث ان اندفع في عنف فوق كومة من الحصى .

وظهر رجلان على الفور ، وسلط أحدهما نور مصباح كهربائي على المنحدر الذي تكوم راوول خلفه . وقال :

– انه هو ... لا يمكن أن يكون أحداً غيره ... قلت لكما :حبل ممدود ونمسك به .

كان جود فرى ديتيج هو الذى تكلم . وقال بنيتو على الفور :

– سنمسك به ... ذلك اذا أراد ... هذا الشقي .

وكان راوول قد اختفى كالحيوان الطريد في دغل من العوسج والأشواك ، حيث تمزقت ثيابه ، وأصبح بعيداً عن متناولهم . وراح الآخرون يسبون ويلعنون عبثاً لأنهم لم يعثروا عليه . وقال صوت ضعيف صادر من العربة ، وكان صوت بومانيان :

– كفى بحثاً . المهم الآن هو تحطيم دراجته ، فافعل يا جود فرى ، ولنسرع فقد استراح الجواد بما يكفي .

– ولكن ، أنت يا بومانيان ... هل أنت في حالة تسمح ...

– سواء سمحت ام لا فلابد من الوصول ... ولكنني أفقد كل دمي بهذا الجرح اللعين . ان الضمادة انفكت .

وسمعهم راوول يحطمون دراجته . ولم تلبث العربة ان انطلقت .

وأسرع راوول خلفها .

كان يغلى من فرط الغيظ . ما كان ليترك المعركة لأى سبب من الأسباب . لم يعد الأمر يتعلق بملايين وملايين ، و بشىء يتيح لحياته معنى رائعاً . ولكن أصبح الأمر الآن أن يتعلق بكرامته هو بالذات ، فقد حل اللغز العويص ، ولابد له الآن أن يكون أول من يصل إلى الهدف ، فانه إذا لم يصل وإذا لم يحصل على نصيبه ففى ذلك إهانة له لا تحتمل حتى أواخر أيامه .

ولهذا ، ودون أن يهتم بتعبه ، راح يجرى على بعد مائة مترمن العربة ، تشجعه فكرة أن كل المعضلة لم تحل بعد وان اعداءه سيضطرون مثله الى البحث عن مكان الصخرة ، وانه سوف يتفوق عليهم فى هذه الناحية .

على ان الحظ ساعده ، فعندما اقترب من جوميج ، التقى بخورى القرية، وكان عائدا بصحبة طفل . وسار راوول معه ، وفى الطريق سأله عن حانة ثم تظاهر بأنه من هواة الآثار واستعلم منه عن صخرة سمع عنها ويقال انها صخرة الملكة ... أو شىء من هذا القبيل . وقال الخورى :

– آه . يبدو لى انك تتكلم عن الصخرة التى نشير اليها هنا باسم صخرة أجنس سوريل ؟

– وهل هى فى جوميج ؟

– تماماً . على بعد مسافة صغيرة من هنا . ولكنها لم تعد أثراً تاريخياً ، فهنا أصبحت عبارة عن صخور صغيرة منبثقة من الأرض ، وأعلا صخرة فيها تشرف على نهر السين وتعلو بنحو متر أو مترين .

– أظنها فى أرض عامة إذا لم أخطىء .

– كانت كذلك منذ بضع سنوات . ولكن المجلس البلدى باعها لاحد رعاياى وهو السيد سيمون تويلار ، وقد أراد أن يوسع أملاكه .

ترك راوول الخـورى وهو لا يتمـالك نفسـه من فرط الفـرح ، فـقـد تزود بمعلومات دقيقة بحيث تجنب بلدة جومبيج وسلك شبكة من الطرق المتعرجة تؤدى الى مكان الصخرة ، وبهذه الطريقة يسبق أعداءه بمدة طويلة .

والواقع أنه قـبـيل السـاعـة الثـالثة كـان يجتـاز طريقـاً أدى به الى أمـلاك سيـمـون تويلار ، وأرى على نور بضـعـة أعـواد من الثـقـاب مـزرعـة أسـرع باجتيازها وافضت به الى سد خيل إليـه أنه حديث البناء يمتـد بمحـاذاة النهر. وبلغ نهايته اليمنى ، ولم يشأ أن يستنفذ مـا مـعـه من ثقاب فلم يعد يرى شيئاً .

ومع ذلك فـقـد ظهرت بقـعـة بيضـاء فى الأفق راحت تشق كبد السمـاء ، فانتظر والسرور والابتسام يفيضان به ، فقد أصبحت الصخرة ق[illegible] منه ، على بعد خطوات . طوال سنوات ، وربما فى مثل هذه الساعة بالذات ، أقبل رهبـان إلى هذا المكان ، خلسـة لكى يدفنوا فـيـه ثرواتهم ، وهو راوول داندريزى سـيـرث ألف ألف راهب كدوا فـيـمـا سـبق وبذروا فى كل أنحـاء فرنسا و حصدوا دون توقف . ويالها من مـعـجـزة ، أن يحقق فى سنه هذه مثل هذا الحلم ، وأن يكون الند لأقوى الأقوياء ، وأن يكون من بين الأسياد المهيمنين .

وسـار بمحـاذاة السد ، وبدأ يتبين حدود ولون الأشيـاء ... لحظة مهيبة . راح قلبـه يدق بشـدة ، و فـجـأة أبصـر على بعـد ثلاثين خطوة منه الأكـمـة المتاخمة للمزرعة والتى تظهر منها ، ومن بين الأعشاب ، بعض الصخور . وتمتم وهو فى أشد حالات الانفعال :

– انه هنا ... هنا ... اننى بلغت الهدف .

وفى وثبتين اجتاز الخطوات العشر التى تفصله عن الأكمة .

افلتت من بين شفتيه صيحة ، وطالعت عينيه الحقيقة البشعة ، فان الجزء الأوسط من الصخرة كان مبقورا . كانت الصخرة محطمة ، وقد تناثر حولها الحصى والعشب المحترق وكان الدخان لا يزال يتصاعد منه . ولم تعد هناك أية ذرة من ذهب أو فضة .

فقد سبقه العدو .

ومرت به اكثر من عشرين دقيقة وهو ينظر الى الحقيقة المرة ، حيث تلاشت أحلامه فى السيادة والسيطرة . وكان مستغرقاً الى حد أنه لم يسمع صوت عربة تتوقف فى الطريق ، وأن لا يشعر بالرجال الثلاثة الذين هبطوا منها ، إلا عندما اقترب أحدهم من الصخرة و أطلق صيحة يأس .

كان بومانيان ومعه صديقاه ديتيج وبنيتو ، يساندانه .

واذا كانت خيبة أمل بومانيان شديدة فان عناء الرجل الذى قامر بكل حياته على هذا الكنز الغامض كان أشد ، فقد اصفر وجهه وزاغت عيناه وتلوثت ضمادة جرحه بالدم ، وراح ينظر فى غباء الى الأرض المدمرة والصخرة المبقورة كما لو أنه ينظر الى أشد المناظر بشاعة وفظاعة .

كان يبدو كما لو أن الدنيا انهارت أمامه ، وانه يتأمل هاوية مليئة بالهول والرعب . وتقدم راوول منه وقال :

– انها هى ...

لم ينطق بومانيان . وهل هناك شك فى ذلك ؟ واعتدل فى وقفته ورد البصر حوله بعينين محزونتين ثم ، وفجأة رسم على صدره علامة الصليب ثم طعن نفسه بالسكين ... تلك السكين التى كانت ملكا لجوزفين بلسامو .

كانت الحركة مباغتة وغير متوقعة ، بحيث لم يستطيع أحد أن يتدخل ، وقبل أن يدرك صديقاه وراوول ما حدث ، انهار بومانيان فى الحفرة ، بين

بقايا المكان الذى كان خزنه الرهبان . وأسرع صديقاه إليه . كان لايزال يتنفس . وتمتم : قسيس ... قسيس .

أسرع بنيتو بالابتعاد ، والتقى ببعض الفلاحين فسألهم وركب العربة . وجثا ديتيج بجوار الحفرة وراح يصلى ، ويضرب بيديه والذعر يحفر وجهه . وانحنى راوول فوق بومانيان وقال له :

– أقسم لك اننى سأجدها ، واسترد الكنز منها .

كانت الكراهية والحب ثابتان فى قلب المحتضر ، ومثل تلك الكلمات فقط يمكن أن تطيل حياته بضع دقائق ، ففى ساعة الاحتضار ، فى انهيار أحلامه ، كان يتعلق فى يأس بكل ما يعنى الثأر والانتقام .

بحثت عيناه عن راوول ، فانحنى فوقه اكثر وسمعه يدمدم :

– كلاريس ... كلاريس ديتيج ... يجب أن تتزوجها ... اسمع ... كلاريس ليست ابنة البارون ... انه اعترف لى بذلك ... انها ابنة إمرأة أخرى كان قد تزوجها .

قال راوول فى صوت هادىء رزين : أقسم لك اننى سأتزوجها .

نادى بومانيان قائلاً : جود فرى ..

كان البارون لا يزال يصلى ، فضربه راوول على كتفه ، وأحناه فوق بومانيان . وتمتم هذا الأخير :

– ستتزوج كلاريس داندريزى ... اننى أريد ذلك .

قال البارون وهو عاجز عن المقاومة : نعم ... نعم ...

اقسم لى .

– أقسم لك .

– ستعطيه كل أموالك لكى ينتقم لنا ... كل الأموال التى سرقتها ... هل تقسم ؟

– أقسم .

– أنه يعرف كل جرائمك ... وعنده الأدلة ... اذا لم تطع فسوف يبلغ عنك .

– سأطيع .

– عليك اللعنة اذا كنت تكذب .

وراح صوت بومانيان يخرج كلأنفاس المجموعة ، وشيئاً فشيئاً ، لم تعد الكلمات واضحة . وانحنى راوول فوقه اكثر لكى يفهمها .

– راوول ... سوف تطاردها ... يجب أن تنتزع منها كل الجواهر ... انها الشيطان ... اسمع ... اننى اكتشفت ان لها زروقا في الهافر ... اسمه « ليفير لويزان » ... اسمع ...

لم تعد لديه القوة لكى يتكلم . ومع ذلك فقد سمعه راوول يقول أيضاً : امض ... حالاً ... ابحث عنها ... ابتداء من اليوم .

وانطبقت العينان ، وبدأ الاحتضار . ولم يكف جود فرى ديتيج عن ضرب صدره بيديه وهو جاث فى الحفرة .

* * *

وفى المساء نشرت إحدى صحف باريس فى طبعتها الأخيرة :

« انتحر هذا الصباح فى بلدة جومييج مسيو بومانيان ، المحامى المعروف فى الدوائر المناهضة للملكية ، والذى سبق أن أعلن عن موته خطافى أسبانيا . وأسباب ذهابه الى تلك البلدة وانتحاره غير معروفة ».

وفى اليوم التالى نشرت الصحف بضعة أنباء نوجزها فى المقال التالى بكل أمانة .

« شاهد الأمير لافورنيف ، أثناء وجوده في الهافر لتجربة يخت النزهة الذى اشتراه حديثاً مأساة فظيعة ، فقد كان فى طريق عودته الي الساحل الفرنسى عندما شب حريق وسمع انفجارا على بعد نصف ميل تقريباً . ونشير فى هذه المناسبة الى أن ذلك الانفجار سمع فى أماكن عديدة من الساحل .

« وعلى الفور ، أدار الا مير لافورنيف يخته الى مكان الحادث حيث اكتشف بعض الحطام التى تطفو على سطح البحر ، وفوق أحداها أحد البحارة تمكن من التقاطه ، ولكنهم ما كادوا يستجوبونه ويعرفون منه ان الزورق اسمه « ليفير لويزان » وانه ملك للكونتس دى كاليو سترو حتى ألقى بنفسه فى الماء من جديد وهو يصيح : انها هى ... انها هى ...

« والواقع أنه على ضوء المصابيح شوهد حطام آخر تتشبث به امرأة تطفو رأسها على سطح البحر .

« وأفلح الرجل فى اللحاق بها ورفعها ، ولكنها تشبثت به فى يأس بحيث شلت حركته ، واختفيا معا . ولم تجد كل الأبحاث .

« وعندما عاد الأمير لافورنيف إلى الهافر أدلى بشهادته وقد أيدها البحارة الأربعة الذين يعملون على اليخت .»

وأردفت الجريدة .

« وتحمل الأنباء الأخيرة على الاعتقاد بأن الكونتس دى كاليو سترو كانت أفاقة ، معروفة باسم مدام بللجرينى ، وتعرف أيضاً فى بعض الأوساط باسم بلسامو ، وقد طاردها البوليس وأوشك أن يعتقلها مرتين أو ثلاث

مرات فى مقاطعة كو ، حيث كانت تعمل فى الأيام الأخيرة . ولاريب أنها أرادت ان تبحر الى الخارج ، وهلكت هى وكل بحارتها فى حادث الانفجار .

« ونذكر أيضاً ، مع كل التحفظات بأنه يشاع أن هناك ارتباطاً بين بعض مغامرات الكونتس دى كاليو سترو و مأساة جومييج الغامضة . ويتحدثون عن كنز مدفون سرقته وعن مؤمرات ومستندات قديمة . ولكننا ندخل هنا فى مجال الاسطورة ، ولهذا نتوقف ونترك للعدالة مهمة إماطة اللثام عن هذه القضية .»

* * *

بعد ظهر هذا اليوم ، دخل راوول مكتب البارون ديتيج فى قصره . وكان يتناول الطعام مع ابن عمه أوسكار دى بنيتو . وقال دون أية مقدمات :

– جئت أطلب يد الآه ديتيج ، وأعتقد ..

ولم يكن مظهره لائقاً أبداً وهو يطلب الزواج ، فقد كان عارى الرأس ، وفوق ظهره سترة بحرية ويرتدى بنطلوناً قصيراً ، وفى قدميه خف عادى .

ولكن جود فرى ديتيج لم يهتم بمظهره ، ولا بطلبه ، فقد كان غائر العينين وبوجهه تجاعيد تدل على مبلغ ألمه . وبسط راوول بعض الجرائد وهو يتأوه قائلاً :

– هل قرأت ؟... الكاليو سترو ؟...

أجاب راوول : نعم ... اننى أعرف .

كان يكره هذا الرجل . ولم يسعه الا أن يقول :

– وهذا خير لك ، أليس كذلك ؟ فان موت جوزفين بلسامو النهائى يخلصك من حمل ثقيل .

تمتم البارون : ولكن النتيجة ... والعواقب ...

– أية عواقب ؟

– العدالة . ستحاول أن يجلو الحقيقة ، فمن الآن ، وبمناسبة انتحار بومانيان يتحدثون عن الكاليو سترو ... واذا ربطت العدالة جميع خيوط القضية فسوف تمضى بعيداً ... حتى النهاية .

داعبه راوول قائلاً : نعم ... حتى الأرملة روسلان ... وحتى تقتل جوبير... أى حتى تصل إليك والى ابن عمك بنيتو ...

ارتجف الرجلان ، فهدأهما قائلاً : اطمئنان ان العدالة لن تحاول أن تجلو كل هذه المسائل البغيضة لسبب وجيه وهو أنها ستحاول على العكس أن تتكمتها ، فقد كان بومانيان يتمتع بحماية بعض الأقوياء الذين لا يحبون الفضيحة ولا كشف أمورهم . ستحفظ القضية . ان الذى يزعجنى اكثر انما هو شيء آخر .

قال البارون : وما هو ؟

– هو انتقام جوزفين بلسامو .

– ولكن مادامت قد ماتت .

– حتى إذا كانت قد ماتت فلابد من توخى الحذر ... يوجد فى آخر البستان كوخ صغير كان معداً للحارس ، وهو الآن مهجور ...سأقيم فيه ... حتى الزواج ... اخطر كلاريس بوجودى وقل لها ان لا تستقبل أى أحد ، ولا حتى أنا ... ومع ذلك فيجب أن تقبل هذه الهدية بمناسبة الزواج ، وأرجوك ان تقدمها لها نيابة عنى .

وبسط راوول للبارون المشدوه ياقوته ضخمة لا مثيل لها فى صفائها

ونقائها.

* * *

١٤ السفاكة الجهنمية

همست جوزفين بلسامو القوا المرساة ، واحضرو القارب هنا .

كانت تنتشر فوق البحر ضبابة كثيفة تزيد كثافة الظلام بحيث لم يكن يمكن تمييز أضواء ايترتا الى حد أن أنوار الفنار لم يكن لها أى تأثير ، وراح يخت الأمير لافورنيف يتقدم فى بطء كما لو أنه يتحسس طريقه ، وقال ليونار :

– ما الذى يثبت لك أننا أمام الشاطئ .

اجابت قائلاً : هذا جنون . لقد مر على نجاحنا خمسة عشر يوماً ، واعترف ان ذلك بفضلك ، وانتصرنا فى آخر مغامرة ، ومجموعة الجواهر كلها قد وضعناها فى حقيبة موجودة فى إحدى الخزائن بلندن ، واختفى كل خطر ، وأصبحت الكاليو سترو وبللجرينى وبلسامو والمركيزة دى بلونت فى قاع البحر نتيجة لغرق الزورق ، وشهد عشرون شاهداً الانفجار وهم وقوف على الشاطئ ، وأصبحت أنت سيدة الموقف وانتصرت على كل أعدائك ، وتأتين الآن الى نفس المكان الذى أصابك بسوء الحظ لكى تواجهى العدو الوحيد الحقيقى ، وأرى عدو ياجوزين ... عدو عبقرى لولاه لما اكتشفنا الكنز

أبداً . اعترفي معى أن هذا جنون .

تمتمت : ولكننى أحبه ولا أستطيع البعد عنه . اننى أحب ، وهذه أول مرة. أما المرات السابقة فلم يكن لها أى معنى ، فى حين أن راوول ...

عرفت بهجة حياتى الحقيقية عن طريقه هو ، ولكننى عرفت أيضاً شقائى العظيم ... لم أعرف السعادة قبله ... ولم اكن أعرف العذاب والآلام كذلك... ثم ... ثم ، انتهت السعادة ... وحين يخطر لى أنه سيتزوج وان زواجهما سيثمر طفلاً ... ان هذا فوق طاقتى ... كل شئ إلا هذا ... أفضل أن اخاطر بكل شئ يا ليونار ... أوثر أن أموت .

قال فى صوت خافت : مسكينة أنت يا جوزين .

ولزما الصمت مدة طويلة ثم قالت : ولكننى لا أتعرض لأى خطر يا ليوتار... ولا حتى للفشل ، فسوف أختطفه ، وقد أعددت كل شئ .

– وكيف ذلك ؟

– بمساعدة دومنيك ، فقد التحق كسائس لدى البارون ديتيج منذ مدة ، حتى قبل أن يظهر راوو ل .

– ولكن راوول يعرفه .

– ربما رآه مرة أو مرتين ، ولكنك تعرف مدى براعة دومنيك فى التنكر ، ومن المستحيل أن يعرفه راوول بين كل الخدم ، فى القصر وفى الاسطبلات . وقد اطلعنى دومنيك على كل ما أريد ، وأعرف السلة التى ينام فيها راوول ، وأعرف متى يصحو ، كما أعرف أنه لم ير كلاريس بعد ، وانهم يقومون بالاجراءات الخاصة بالزواج . وقد سمع دومنيك بضع عبارات بين راوول وبين البارون ، عندما مضى للقائه في القصر . ولم يرق الشك الى أى أحد منهم فى موتى ، ولكن راوول طلب من البارون أن يكون على حذر ، حتى

بعد موتي . وهو يراقب ويقوم بالحراسة حول القصر ، ويسأل الفلاحين .

– وهل سيتركك دومنيك تذهبين ؟

– نعم . ولكن لساعة فقط... نضرب ضربتنا بجرأة وسرعة أثناء الليل ثم نبادر بالهرب على الفور ... والليلة بالذات ، فيما بين العاشرة والحادية عشرة . ان راوول يقيم فى كوخ قديم كان معداً لاقامة الحارس ، فما أن ينام حتى نلفه فى المرتبة والغطاء فهما عريضان ، ونأتى به الى اليخت ثم نرحل في نفس الليلة .

– ودومنيك

– سيرحل معنا .

–ألم تصدرى إليه أمراً خاصاً بخصوص كلاريس ؟... انك تكرهينها ، واعتقد انك كلفت دومنيك بمهمة خاصة .

ترددت قليلا ثم قالت : ليس هذا من شأنك .

– ومع ذلك ...

وانزلق القارب بجوار اليخت ، وقالت جوزين بلهجة المزاح :

– اسمع يا ليونار . منذ أن جعلتك الأمير لانورنيف ، ومنحتك يختاً جميلاً أصبحت متطفلاً . فدعنا لا نخرج من اتفاقنا . اناأصدر الأوامر ، وعليك أنت أن تطيع . ولا حق لك ابداً إلا فى بعض الايضاحات ، وقد زودتك بها ، فافعل كما لو أنها تكفيك .

قال : انها تكفيني ، واعترف انك دبرت أمورك بكل حذق وذكاء .

– هذا افضل . فلنهبط الآن .

وهبطت هى الاولى فى القارب ، وتبعها ليونار ، وأربعة من شركائهم .

وقام اثنان منهم بالتجديف نحو الشاطئ . وسألها ليونار :

– هل أنت واثقة اننا لن نلتقى برجال الجمارك ؟

– كل الثقة . فان برقية دومنيك قاطعة . وسنلتقى به بالقرب من كوخ راوول .

وبلغوا الشاطئ ، وتقدموا نحو القصر فى سكون وهدوء تامين بفضل الظلام والضباب . وعندما اقتربوا من الكوخ قطعت الكاليو سترو على رجالها الطريق قائلة : انتظرونى . وسألها برنار هل أصحبك ؟

– كلا . سأستطلع الكوخ ثم أعود لأبحث عنك وندخل معاً .

وتقدمت وحدها فى سكون وحذر ، وهى تحاول أن لا يصدر منها أى صوت ، وتبينت الكوخ خلال الظلام ، ولمست بيدها مصراعى النافذة ، ولم تكن مكمة الاغلاق إذ تلاعب دومنيك بها . ووارابت جوزفين المصراعين بحيث

أحدثت فتحة تسلل منها قليل من النور .

ألصقت جبهتها ورأت راوول بالداخل راقداً يقرأ كتاباً على ضوء مصباح بجوار الفراش . ومرت فترة ثم أطبق الكتاب ونام .

واذ رأت جوزفين ماأرادت عادت الى شركائهم . وكانت قد أصدرت إليهم تعليماتها ولكنها كررتها من جديد ثم قالت .

– لا أريد عنفاً لا طائل منه يا ليونار. وحيث انه ليس بين يديه ما يدافع به عن نفسه فلن تحتاجوا الى أسلحة ، فأنتم خمسة ، وهذا يكفى .

قال ليونار : واذا قادم ؟

– عليك أن تتصرف بحيث لا يستطيع المقاومة .

ودخل الرجال الخمسة ، وتم كل شئ بسرعة . ولم يستيقظ النائم إلا بعد

أن أصبحت كل مقاومة غير ممكنة ، فقد غطوه بالأغطية السميكة وجمعوا طرفى المرتبة حوله وربطوها مسرعين . ولم يتطلب الأمر اكثر من خمس دقائق . ولم تصدر ولو صيحة واحدة ، ولم يتبعثر أى شئ فى الغرفة .

وهكذا انتصرت الكاليو سترو ومرة أخرى ، وسألها ليونار :

– ماذا يجب أن نفعل ؟

– احملوه الى المركب .

واقترب ليونار منها وسألها قائلاً : ألا تأتين معنا ؟

– كلا ، فاننى انتظر دومنيك .

– بسبب الفتاه ... أليس كذلك ؟

– نعم .

وحمل الرجال راوول وخرجوا من النافذة وأغلقتها خلفهم ثم انتظرت .

ودقت ساعة الكنيسة الحادية عشرة ، فأرهفت السمع ، وسمعت صفيراً خافتا ففتحت باب الكوخ وردت على الصفير بصفير آخر خافت ، فأسرع دومنيك اليها ، ودخلا الغرفة معا ، وقال قبل أن تسأله : قضى الأمر .

قالت فى إعياء وضعف بحيث اضطرت الى الجلوس : هل تألمت ؟

– كلا . كانت نائمة .

– وهل تأكدت من انها ماتت .

– طبعاً ، فقد طعنتها ثلاث مرات . ثم واتتنى الشجاعة فبقيت لكى أتأكد... ولكن لم يكن هناك داع لذلك ، فقد سكتت أنفاسها وبردت يداها .

– واذا لحظ أحد ذلك ؟

- محال . فلا يدخل أحد غرفتها قبل الصباح ... وسيتحققون من الأمر عندئذ فقط .

لم يجرؤ أى منهما على النظر الى الآخر . وبسط دومنيك يده ، فأخرجت من صدرها عشر ورقات مالية ناولتها له أخذهاوهو يقول :

- شكراً لك . ولكن لو طلبت منى أن أقوم بذلك مرة أخرى فسوف ارفض، ماذا يجب أن أفعل الآن ؟

- انصرف . سوف تلحق بالآخرين اذا عدوت .

- حسناً ... حسناً ... ولكن أنت ؟

- سأرى إن كانت هناك أوراق فيها خطر علينا ثم انضم إليكم .

وما أن خرج حتى راحت تفتش أدراج مكتب صغير . واذ لم تجد شيئاً فتشت جيوب راوول ، وكان قد طواها على مقعد بجوار الفراش قبل أن ينام.

ولفتت المحفظة اهتمامها . كان بها بعض النقود وبطاقات زيارة باسم راوول داندريزى وصورة كلاريس .

تأملت الصورة طويلاً ، باحساس لم يكن فيه حقد ولا كراهية وإنما قسوة لاترحم . ثم بقيت جامدة وقد استغرقها الأفكار . وكان أمامها مرآة فنظرت إليها ، وقد وقفت بضع دقائق وهى كذلك ثم عادت الى استغراقها . ودقت الساعة الربع بعد الحادية عشرة ولكنها لم تتحرك . وكان يخيل أنها نائمة ، وبدا كأنها تعيش فى حلم ، وأحست كأنها ترى صورة محيرة حاولت عبثاً أن تعتاد عليها . ظهرت تلك الصورة من خلف الستائر ، وراء الفراش . وبدا كأن يدا تخرج من خلفها .

وامتدت اليد اكثر فأكثر ، وتبعها ذراع ، وبرز فوق تلك الذراع رأس .

وكانت جوزفين بلسامو معتادة على الجلسات الروحانية ، حيث ترسم الظلال أشباحاً ويعطى الوهم إسما لذلك الذي يصوره لها خيالها خارجا من الظلمات . وكان ذلك الشبح يرتدى ثياباً بيضاء ، ولم تدر اذا كان توتر فمه يعبر عن ابتسامة رقيقة أم تكشيرة غاضبة وتمتمت :

– راوول ... راوول ... ماذا تريد منى ؟

وأبعد الشبح احدى الستائر وتقدم الى الفراش :

خفضت جوزفين جنبيها وهى تتأوه ثم أسرعت وفتحتها . كان الوهم يقترب وهو يصدر حركات مسموعة تقطع صمت الكوخ . وأرادت أن تهرب ، ولكنها لم تلبث أن أحست على كتفها بيد لم تكن يد شبح طبعاً . وسمعت صوتا مرحا يقول :

– ما رأيك الآن أيتها العزيزة جوزفين ؟... اذا كنت بحاجة الى نصيحة فاطلبى من الأمير لافورنيف أن يقدم لك رحلة صغيرة للاستجمام ، فأنت بحاجة إلى قليل من الراحة أيتها العزيزة جوزفين . ولكن كيف هذا ... هل تحسبيننى شبحاً ، فرغم اننى فى منامة النوم فأنا لست غريباً عنك .

وبينما كان يرتدى بدلته ويربط رباط عنقه راحت تكرر مشدوهة :

أنت ... أنت ...

جلس بجوارها وقال : نعم . أنا . لا تلومى الأمير لافورنيف ، ولا تظنى أنه تركنى أهرب ثانية ... كلا ، كلا . ان ما حملوه وخرجوا به انما هو مرتبة بداخلها تمثال بالحجم الطبيعى ... مانيكان ... أما أنا فلم أغادر مكانى وراء الستائر منذ أن تركت مكانك خلف النافذة .

بقيت جوزفين بلسامو جامدة مكانها ، عاجزة عن الاتيان بأية حركة ، وكما لو أنها اوسعت ضرباً ، فى حين قال راوول :

– عجباً . انت لست فى حالة طبيعية . هل تريدين كأساً من النبيذ لكى ينعشك . اعترف لك على كل حال يا جوزفين اننى أدرك انهيارك ، ولا أريد أن أكون مكانك ، فكل شركائك قد انصرفوا ، وليس هناك أية نجدة ممكنة قبل ساعة ، وأنت أمامى فى غرفة مغلقة ، ولك الحق فى أن ترى السواد فى كل شئ . انك سيئة الحظ حقاً .

وانحنى والتقط صورة كلاريس وقال : ما أجمل خطيبتى ، أليس كذلك ؟ رأيت بسرور انك كنت تتأملينها باعجاب منذ لحظات . هل تعرفين أننا سنتزوج بعد أيام ؟

تمتمت الكاليو سترو : انها ماتت ... ماتت .

قال ساخراً : ماذا تريدين ؟... هذا يحدث كل يوم . وليس هذا بسبب لكى أغير خططى سواء ماتت أو على قيد الحياة فسأتزوجها .

سنتدبر أمرنا كيفما نستطيع . انك دبرت أمورك جيداً أنت الأخرى .

قالت جوزفين وقد بدأت تلك السخرية تثير قلقها : ماذا تعنى ؟

– نعم . دبرت أمورك جيداً . فقد أغرقك ليونار أول مرة ، والمرة الثانية غرقت مع زورقك . ومع ذلك هذا فان ذلك لم يمنع وجودك هنا . وفى نفس الوقت ، ليس بسبب ان كلاريس تلقت ثلاث طعنات من سكين فى قلبها أن لا أتزوجها . أولاً ، هل أنت واثقة مما تقولين ؟

– ان رجلاً من رجالى هو االذى طعنها .

– أو على الأقل زعم لك أنه طعنها .

نظرت إليه متسائلة وقالت : ولماذا يكذب على ؟

– عجباً ! لكى يحصل على العشرة الاف فرنك التى وعدته بها

– ان دومنيك لا يمكن أن يخونني ، لن يخونني حتى من أجل مائة ألف فرنك . ثم انه يعرف جيداً انني سوف أعثر عليه ، وهو ينتظرني مع الآخرين.

– هل أنت واثقة انه ينتظرك يا جوزين ؟

ارتجفت . خيل إليها أنها تتخبط في دائرة تزداد ضيقاً حولها من لحظة لأخرى . وهز راوول رأسه وقال :

– من الغريب أن كل منا قد أخطأ نحو الآخر . فهل أنت من السذاجة أيتها العزيزة جوزفين لكي أصدق لحظة واحدة الانفجار الذى أصاب الزورق. اكنت تعتقدين أن شاباً له مثل عبقريتي وذكائي لن يدرك حقيقة ما حدث ؟ ان ذلك الانفجار جاء مناسباً لك في الواقع ، فان يديك متعلقتان بالجرائم وملوثتان بالدم ، والبوليس يسعى وراءك ، وعندئذ تغرقين الزورق وتغرقين معه كل جرائم الماضى ، والكنز المسروق وغيره من ثروات . كل ذلك يغرق ، ويعتقد البوليس عندئذ انك لقيت حتفك ، وتغيرين اسمك وتبدأين حياة جديدة وتقتلين وتعذبين وتلوث يدك في الدم من جديد .

فليعتقد البوليس ما يشاء . أما أنا فما أن قرأت نبأ الانفجار حتى قلت لنفسي : افتح عينيك جيداً ، وأتيت هنا .

واستطرد يقول بعد صمت قصير : كنت أتوقع قدومك يا جوزفين . وكان يجب أن تدبرى أمرك مع بعض شركائك . وكان حتمياً أن يأتى يخت الأمير لافورنيف هنا هذا المساء ، ولهذا اتخذت حيطتي . وكان أول ما عنيت به هو أن أنظر حولي لكي أرى ان لم يكن هناك وجه مألوف ... شريك لك ... وهذا أسهل شئ .

« وعلى الفور عرفت السيد دومنيك ، لأنني ، كما لا تعرفين ، سبق أن

رأيته بجوار عربتك أمام بيت بريجيت روسلان ... ودومنيك خادم مخلص ، ولكن خوفه من الشرطة ومن علقة ساخنة منى أنا بالعصا روضاه الى حد أن أخلاصه تحول إلي . وأثبت ذلك بأن أرسل اليك تقارير كاذبة وساق قدميك بالاتفاق معي إلى الفخ الذى نصبته لك . وهذا مكسب له : عشرة آلاف فرنك من جيبك لن تريها أبداً لأن خادمك المخلص عاد الى القصر ، تحت حمايتى .

« هذا هو موقف كل منا الان أيتها العزيزة جوزفين . كان يمكننى بالطبع أن أوفر عليك هذه المهزلة الصغيرة ، وأن أستقبلك هنا مباشرة لمجرد سرورى بأن أشد على يدك . ولكننى أردت أن أرى أيضاً كيف تديرين العملية ، وبقيت في الخلف ، وأردت أن أرى أيضاً كيف ستقابلين نبأ مقتل كلاريس ديتيج المزعوم .

ارتدت جوزين الى الخلف . لم يعد راوول يمزح بعد ، فقد انحنى فوقها وراح يقول فى صوت مكبوت :

– ان كل ما أحسست به أنت شئ من الانفعال . فقد حسبت ان تلك الفتاة ماتت ... ماتت بأمر منك ، ولم يكن لذلك أى تأثير عليك . ان موت الآخرين لا يهمك ... فى العشرين من العمر ، أمامها حياة بكل الحب والسعادة ، وتأتين أنت فتنتزعين كل ذلك كما لو انك تكسرين جوزة صغيرة بدون أى وازع من ضمير . وأتذكر الآن أن بومانيان كان يدعوك بالسفاكة الجهنمية . وقد أثارنى وصفه هذا فى البداية ، ولكن اتضح أنه وصف صادق ، وان فيك شيئاً من جهنم نفسها . لم أعد أفكر فيك من غير ان أشعر بالفزع . ولكن أنت نفسك يا جوزفين . ألا تفزعين فى بعض الأحيان ؟

تمتمت فى يأس بالغ : نعم ، نعم ... ولكننى لا أريد أن أتحدث عن ذلك...

لا أريد أن أعرف ... اسكت ... اسكت .

قال : بل يجب ان تعرفى على العكس . اذا كنت تفزعين من أعمالك فلماذا تقدمين عليها ؟

قالت فى إعياء شديد : لا أستطيع أن أفعل غير ذلك . علمونى أن أفعل الشر كما يفعل غيرى الخير . وانا أفعل الشر كما لو انه شئ لابد منه .

– ومن الذى علمك ؟

سمع الرد فى شئ من الغموض : أمى وقال : أمك ... الجاسوسة ؟

تلك التى دبرت كل تلك القصة التى تدور حول كاليو سترو ؟

– أجل . ولكن لا تتهمها ، فقد كانت تحبنى كثيراً . وكل ما هنالك انها لم تفلح فى حياتها . أصبحت فقيرة وتعيسة وأرادت أن أفلح ... وأن أكون غنية.

– ولكنك كنت جميلة والجمال بالنسبة للمرأة أكبر ثروة ... كان الجمال يكفى .

– كانت أمى جميلة هى الأخرى ، ومع ذلك فان جمالها لم يفدها فى شئ.

– هل كنت تشبيهينها ؟

– شبه بحيث لا يفرق بيننا أى أحد . وهذا هو سبب هلاكى . أرادت أن استأنف ما تدعوه فكرتها الخالدة ... ميراث كاليو سترو .

– أكان معها مستندات ؟

– قصاصة من الورق ... عليها رباعية اللغز ، وقد وجدتها إحدى صديقاتها فى أحد الكتب ، وكان يبدو انها بخط كاليو سترو ... وقد أثملها

ذلك ، كما أثملها نجاحها بجوار الامبراطورة اوجيني . واضطررت أنا أن أستمر عندئذ . أقنعتني بذلك وأنا طفلة ، وربتني وأنشأتني على هذه الفكرة.

كانت تلك حرفتي التي أرتزق منها ، وكان ذلك مصيري وقدري . كنت ابنة كاليو سترو . استأنفت أنا حياتها ، وحياته هو . حياة براقة كتلك التي عاشها في الروايات ... حياة أفاقة تتمتع بكل المواهب وتسيطر على العالم ... ليس لها ضمير ... كان يجب أن أنتقم لها من كل ما عانت منه ... وعندما ماتت قالت لي « انتقمي لي »

وراحت تبكي في صمت ثم قالت : لا تصدقني ياراوول . أنت الوحيد في الدنيا الذي كان يمكن أن ينقذني من الشر . أحسست بذلك على الفور ، فان فيك شيئاً سوى وكله خير ... آه . يا للحب ... الحب وحده هو الذي احسسني بالهدوء ... ولم أحب غيرك ، فلا تصدقني .

ورفعت رأسها ، ومدت ذراعيها بطول كتفيه وأحاطت عنقه ونظرت إليه في وجد ووله . وكانت نظرة كافية بحيث لم ير راوول فيها المرأة التي تتوسل وانما تلك التي تريد الغواية والاغراء وتستخدم رقة عينيها وحلاوة شفتيها . والنظرة الرقيقة الساذجة والمؤلمة ، فتخلص من الأغراء وأقصى عنه المرأة الفاتنة التي تعانقه وقال :

– هل تذكرين ... ذات يوم ، في الزورق ، خاف كل منا من الاخر ، كما لو أننا كنا نحاول أن يخنق كل منا الأخر . وهو نفس الحال الآن ، فانني إذا استسلمت لك فانني هالك ، ويأتي الموت غداً أو بعد غد . اعتدلت فجأة، وكل ما فيها ينطق بالعداء والشر ، وغمرها الكبرياء من جديد . وهبت العاصفة بينهما فجأة فنقلتهما من الأمل والحذر إلى حالة جارفة من الحقد والتحري . وعاد راوول يقول :

– ولكن الواقع اننا منذ اليوم الأول كنا عدوين لدودين . لم يكن كل منا يفكر إلا فى هزيمة الآخر ، وخصوصاً أنت ، فقد كنت أنا الغريم والدخيل . كانت صورتى فى ذهنك تمتزج بفكرة الموت . انك قد حكمت على به سواء طواعية أم لا .

هزت رأسها وقالت فى لهجة عدوانية : حتى الآن لا .

صاح : ولكن الآن نعم ، أليس كذلك ؟. ولكن جد شئ جديد ، هو اننى لم أعد اعبأ بك الآن يا جوزفين ، فقد أصبح التلميذ استاذاً ، وهذا هو الذى أرادت ان أثبته لك اذ قبلت النزال وتركتك تأتين هنا ، وعرضت نفسى وحدى لضرباتك وضربات عصابتك . وهانحن ، كل منا أمام الآخر ، ولا تستطعين شيئاً ضدى ... لقد فشلت على طول الخط ... فكلاريس على قيد الحياة ، وأنا حر ، فهيا يا جميلتى ، أخرجى من حياتى . انك غلبت على أمرك تماماً... وانني أحتقرك .

رماها فى وجهها بالكلمات الجارحة التى أوجعتها كضربات السوط امتقعت وتغيرت ملامحها ، ولأول مرة بدا على جمالها الذى لا يتغير مسحة من الانحلال والذبول . وجزت على أسنانها قائلة : سوف أنتقم .

قال راوول ساخراً : مستحيل . اننى قلمت أظافرك . وانت تخافين منى ، وهذا أروع شئ فى حياتى أراه اليوم ... وهو انك خائفة منى .

تمتمت : سأكرس كل حياتى للانتقام منك .

– لا يمكنك أن تفعلى شيئاً ، فقد عرفت كل خدعك . انك فشلت وهذه هى نهايتك .

هزت رأسها وقالت : لدى وسائل أخرى ... تلك الثروة الطائلة التى

حصلت عليها .

سألها راوول في استخفاف : بفضل من ؟... ألم يكن هذا بفضلي أنا ؟

– ربما . ولكن أنا التي عرفت كيف أتصرف وكيف اخذ . وأنت لا تجيد إلا الكلام ، كما هي عادتك . ولكن كان لابد من عمل ، وهذا العمل أنا التي قمت به . الآن كلاريس على قيد الحياة ولأنك طليق تظن انك انتصرت؟ ولكن حياة كلاريس وحريتك يا راوول شيئان تافهان بجانب الشئ الكبير الذي تسبب في نزالنا ، أي الاف و آلاف الجواهر . ان المعركة الحقيقية كانت هناك يا راوول ، وقد فزت بها أنا ما دام الكنز معي .

قال في سخرية : من يدري .

– انه معي كما أقول لك ، فقد وضعت أنا بنفسي الأحجار التي لا تحصى في حقيبة حزمتها ، وختمت أمامي ، وأنزلتها في قاع الزورق ثم أخذتها قبل انفجاره ، وهي الآن في لندن ، في خزينة أحد البنوك .

قال راوول بلهجته الساخرة . نعم . والحقيبة جديدة والأختام عددها خمسة بالشمع البنفسجي وعلى كل ختم الحرف الأولان من اسمك : ج . ب. أي جوزفين بلسامو . أما الحقيبة فهي من الخيزران المجدول وملفوفة بسيور من الجلد بصورة بسيطة لكي لا تستلفت النظر .

رفعت الكاليوسترو إليه عينين مذعورتين وقالت : اذن فأنت تعرف . ولكن، كيف عرفت ؟

قال ضاحكاً : اننا بقينا معا وحدنا ، أنا وهي ساعات طويلة .

– كذب . ان الحقيبة لم تفارقني لحظة واحدة من جوميج حتى مضيت بها الى البنك .

– هذا صحيح . وأنت أنزالتها بنفسك الى قاع الزورق . وكنت أنا في القاع في ذلك الوقت ، فقد أدركت وأنا واقف أمام الصخرة المبقورة انك ستمضين الى الزورق بالجواهر ، وتحاولين الهرب مني ومن البوليس بالرحيل الي الخارج ، فأسرعت الى الهافر . وفي الساعة الواحدة ذهب رجالك الثلاثة لاحتساء القهوة في البار فانتهزت الفرصة وأختفيت في قاع الزورق ، خلف بعض الصناديق والبراميل . وفي الساعة السادسة أتيت انت وأنزلت الحقيبة بواسطة حبل تركتها تحت رعايتي . وفي الساعة العاشرة أقبل ليونار ، وكان قد قرأ في الجرائد نبأ انتحار بومانيان . وفي منتصف الليل اقتربت مركب أخرى ، وتحول ليونار فأصبح الامير لافورنيف وأشرف على نقل كل ما هو ثمين من الزورق الى المركب وعلى الخصوص الحقيبة التى استرددتها أنت من القاع ثم .. انفجر الزورق .

امتقع لون الكاليو سترو في حين استطرد راوول يقول :

– واعترف لك انني قضيت عندئذ بضع لحظات بغيضة . كنت وحدى ولم يكن بالزورق أحد ، وبدا يسير على غير هدى ويتأرجح كما لو أن رجلاً ثملاً يسوقه . ولم ألبث أن خمنت خطتك والقنبلة الموضوعة في مكان ما والتى لن تلبث أن تنفجر .

« كنت اتصبب عرقاً . هل ألقى بنفسي في الماء . ونويت على ذلك وبينما كنت اخلع حذائي أدركت في سرور أن شيئاً مربوطاً الى الزورق يرتطم به . وكان في ذلك نجاتي ، فبعد عشر دقائق كنت جالسا في القارب في هدوء على بعد نحو مائة متر عندما وقع الانفجار .

وفي الليلة التالية ، بعد أن راح القارب يتأرجح بي اندفع الى شاطئ انتيفر الصخرى ، فألقيت بنفسي في الماء ، وبلغت الشاطئ ثم أسرعت إلى

هنا لكي استعد لزيارتك أيتها العزيزة جوزفين .

أصغت الكاليو سترو دون أن تقاطعه في هدوء واطمئنان ، فما سمعته عن ركوب راوول القارب ونجاته من الانفجار لم يكن له أية أهمية .

ومع ذلك فقد ترددت في إلقاء السؤال المهم ، مدركه أن راوول ليس بالرجل الذي يخاطر بكل شئ لا شئ الا لكي ينجو بنفسه . وامتقع لونها ، وقال راوول :

- حسناً . ألا تسألينني عن شئ ؟

- وعم أسألك ؟... انك قلت ذلك بنفسك ... انني استرددت الحقيبة وهي الآن في مكان أمين .

- ألم تلاحظي آثار شق في الجانب ... شق بين عقد الخيزران ؟

- شق ؟

- عجباً ... انني لم أبق ساعتين أمام الحقيبة مغلول اليدين ، فقد ثقبتها بطريقة لا يمكن أن يفطن إليها أحد بحيث انك عندما تفتحيها ستجدين ، بدلاً من الجواهر بضعة أرطال من الفاصوليا والعدس بما يوازي ثقل المجواهرات .

تمتمت وهي تحاول ان تحتج . هذا غير صحيح ... لا يمكن أن تكون ...

أخذ راوول من احد الدواليب حقيبة أفرغ ما فيها في كفه يده ... عشرين أو ثلاثين ماسة وياقوتة راحت ترتطم وتتلالا وقال :

- وهناك الكثير غيرها . صحيح ان الانفجار منعني من الاستيلاء على كل الجواهر وتبعثر معظمها في البحر ، فانني وقد شعرت بالمركب الأخرى

بجوار الزورق ، ورأيت من احدى الكوات البحارة ينقلون ما بالزورق الى المركب أدركت مايحاك ، فقفزت من الكوة في الوقت المناسب ، قبل انفجار الزورق ببضع دقائق ، وكانت النتيجة ان تبعثرت معظم الجواهر التى معى واستقرت فى قاع البحر . ولكن ما بقى يكفى لكى أعيش عيشة مترفة حتى اخر العمر .

– هل أدركت الآن اننى قد هزمتك على طول الخط يا جوزفين ؟ ستنصرفين من هنا وأنت مقتنعة تماماً بأنك لن تستطيعى شيئاً ضدى وان خير ما تفعلين هو أن تتخلى عن كل دسائسك ومكائدك . سأكون سعيداً رغما عنك ، وكلاريس كذلك ، وسننجب أولاداً كثيرين ، وهذه حقائق لابد لك أن تتقبليها . وراح يمشى وهو يقول فى فرح وسرور متزايدين : ماذا تريدين؟ ان سوء الحظ لعب دوره معك . انك نازلت شاباً أقوى منك ألف مرة. وأذكى منك بكثير يا صديقتى المسكينة ... وأى ذكاء وأية عبقرية !... لم يفتنى منك أى شئ ، وكنت أقرأ مخك كما لو كنت اقرأ كتاباً مفتوحاً ، فأنت تولنيني ظهرك فى هذه اللحظة ، أليس كذلك ؟... وأعرف تماماً انك تدسين يدك فى صدرك و تخرجين منه مسدساً ، وانك ...

والحق ان راوول لم يكد يفرغ من قوله هذا حتى استدارت الكاليو سترو وفى يدها مسدس . وانطلقت الرصاصة ، ولكن راوول كان يتوقع منها ذلك فأسعفه الوقت لكى يلوى ذراعها ويوجه فوهة المسدس إليها هى بالذات ، فوقعت على الأرض وقد أصابتها الرصاصة فى صدرها .

وأخذت نفساً طويلاً ، وفتحت عينيها . وعندئذ ، أحس إحساساً لا يقاوم بأنه لم يعد يريد أن يراها أو ان يفكر فيها .

فتح النافذة وأصاخ السمع . خيل إليه ان هناك خطوات تسير فوق

الشاطئ ولاريب ان ليونار تحقق عندما بلغ الساحل أن العملية اقتصرت على اختطاف تمثال ، ولاريب أنه أحس بالقلق على جوزفين فأسرع لنجدتها. وقال راوول يحدث نفسه : فليجدها وليحملها ... ولتمت أو لتعيش ، ولتكن سعيدة أو تعيسة فانني لا أحفل ... لا أريد ان أعرف عنها شيئاً بعد ... كفى ... كفانى من هذا الجحيم .

ومن غير أية كلمة ، ومن غير أية نظرة نحو المرأة التى تمد يدها وتتوسل إليه ، انصرف .

وفى اليوم التالى مضى لرؤية كلاريس ديتيج .

لم يكن رأى الفتاه حتى ذلك الوقت لكى لا يثير جروحاً يعرف أنها شديدة الحساسية . ولكنها كانت تعرف أنه موجود . وأدرك على الفور ان الزمن قد قام بدوره فان وجنتيها كانت اكثر توردا وعينيها تومضان بالأمل وقال لها:

– كلاريس . انك وعدتنى منذ أول يوم أن تسامحينى .

قالت الفتاة وهى تفكر فى أبيها : بل هناك ما يجب ان تسامحينى عنه ، فقد آذيتك كثيراً . ولست أطلب حبك فحسب ، وانما بحاجة الى عنايتك وحمايتك . اننى بحاجة إليك يا كلاريس ، لكى انسى ذكريات بغيضة ، ولكى أستعيد ثقتى فى الحياة وأتغلب على أشياء فظيعة فى داخلى ، تجرنى إلى حيث لا أريد . واذا ساعدتنى فانا واثق اننى سأكون رجلاً شريفاً . وأعدك بذلك فى اخلاص ، وأعدك انك سوف تكونين سعيدة كذلك . هل تريدين أن تكونى زوجتى ؟

وبسطت يدها إليه .

* * *

الخاتمة

صح ما توقعه راوول فقد حفظ اولو الأمر القضية ، وانفصل شركاء بومانيان ، ولم يتحدث أحد عن كنوز الرهبان ، ولم يعرف الجمهور شيئاً عنها .

وظل دور راوول في تلك القضية مجهولاً ، وتم زواجه من كلاريس دون أن يهتم به أحد ، ولا ندرى بأية معجزة استطاع ان يتزوجها باسم راوول داندريزى ، ولاريب اننا يجب أن نعزو تلك المعجزة الى الامكانات العظيمة التى اتاحتها له قبضتا الأحجار الكريمة التى اقتطعها من الكنز ، فان من الممكن بواسطتها شراء كل شئ . ولاريب ان اسم ارسين لوبين اختفى هو الآخر ، لأن اسم ارسين لوبين لم يعد له وجود في أى سجل مدنى ، ولا فى مستند حكومى ، وكذلك الحال مع اسم تيوافرست لوبين . ولم يعد هناك قانوناً غير اسم الفيكونت راوول داندريزى ، وقد قام تحت هذا الاسم برحلة خلال أوربا احتفالا بزواجه بكلاريس ديتيج .

وقد وقع حادثان كان لهما الأثر في ذلك الوقت ، فقد وضعت كلاريس

طفلة ماتت عقب ولادتها ، وبعد بضعة أسابيع جاءها نبأ موت أبيها .

والواقع ان جود فرى ديتيج وابن عمه بنيتو غرقا أثناء نزهة بحرية . أكان ذلك حادثاً أم انتحاراً ؟ كان ابنا العم قد أصابهما الجنون فى أواخر أيامهما ، وساد الاعتقاد بأنها انتحرا . وأشيع أيضاً أن فى الأمر جريمة قد فقد قيل أن يختا صدم قاربهما وأغرقها وأسرع بالفرار . ولكن لم يقم الدليل على ذلك .

ومهما يكن من أمر فان كلاريس أبت أن تمس ثروة أبيها ووهبتها كلها للمؤسسات الخيرية .

ومضت سنوات حلوة . بعيدة عن كل المشاكل والهموم . وبر راوول بأحد الوعدين اللذين وعد كلاريس بهما ، فقد كانت سعيدة كل السعادة .

أما الوعد الثانى فلم يف به ، ولم يكن شريفاً

ذلك لأنه لم يستطع ، فقد طبع دمه على أن يأخذ وأن يدبر وأن يخادع ، وكان بالغريزة مهرباً ولصاً ومحتالاً ونهاباً وقرصاناً ومتآمراً ، وعلى الخصوص زعيم عصابة ، فخفية عن كلاريس ، ومن غير أن تعلم قام بمشروعات وأفلح فى أعمال تطورت فيها مواهبة الخارقة .

ولكنه كان شديد الحرص قبل كل شئ على توفير كل راحة وسعادة لكلاريس ، فقد كان يحترم زوجته ، ولم يشأ أن تعرف أنها زوجة لص . واستمرت سعادتها خمس سنوات . وماتت كلاريس بعد أن انجبت طفلا اسمته جان .

ولكن ذلك الطفل اختفى في اليوم التالى ، ولم يكن هناك أى دليل يسمح لراوول أن يكتشف من الذى اقتحم بيته ، وان كان قد عرف من اين أتته

الضربة ، فهو لم يشك ابداً فى ان الكاليو سترو هى التى اغرقت ابنا العم ، ثم انه كان قد عرف أن دومنيك مات مسموماً . واعتقد انه الكاليو سترو هى التى دبرت اختطاف ابنه .

وبدله حزنه ، اذ تعد له زوجة ولا ولد ، انطلق فى الطريق الذى تجره إليه كل تلك القوى . وفى يوم وليلة أصبح أرسين لوبين ، ولم يعد يتحفظ أو يجامل ، بل على العكس انطلق الى الفضائح والتحريات والوقاحة والغرور والسخرية . وأصبح اسمه على الجدران وبطاقته فى الخزائن .

ولكن سواء باسم ارسين لوبين او بالاسماء التى كان يحلو له ان يتخذها، وسواء اتخذ اسم برنار داندريزى ، وهو ابن عم له مات فى الخارج فسرق أوراقه ، او اسم هوراس فيلمون او الكولونيل سبار بينتو أو الدوق دى شار ميراس أو الأمير سرنين أو دون لويس بيرينا ، فقد كان يبحث ، تحت كل هذه الاسماء عن الكاليو سترو وعن ابنه جان .

ولم يجد ابنه ولم ير جوزفين بلسامو أبداً .

ألا تزال على قيد الحياة ؟ وهل تجرؤ على الظهور فى فرنسا ؟

وهل تستمر فى التآمر والقتل . ، وهل كان يقر فى قرارة نفسه ان التهديد المستمر ضده منذ وقت القطيعة سينتهى بمثل هذا الانتقام الهائل وهو اختطاف .

كل الحياة التى عاشها أرسين لوبين ، وكل مشروعاته الجنونية والمحن التى فوق طاقة البشر ، وانتصاراته العجيبة وغرامياته العديدة واطماعه ، كل ذلك كان يجب أن يقع له قبل ان تسمح الاحداث بالرد على هذه الأسئلة المخيفة .

وهكذا ارتبطت مغامرته الاولى ، بعد ربع قرن من الزمان ، الى ما راق له أن يدعوها بمغامرته الأخيرة .

* * *

تمت



مكتبة معروف

سكندرية : ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦١٢٥ فاكس ٤٨٩٠٠٨٩

ص.ب ٣٧٠ الإسكندرية

اهرة : ٢٦١١٢٢٩

بالمملكة العربية السعوديه

مكتبة دار الشعب

ت : ٤١١١٢٠٧ الرياض

marouf@intouch · com